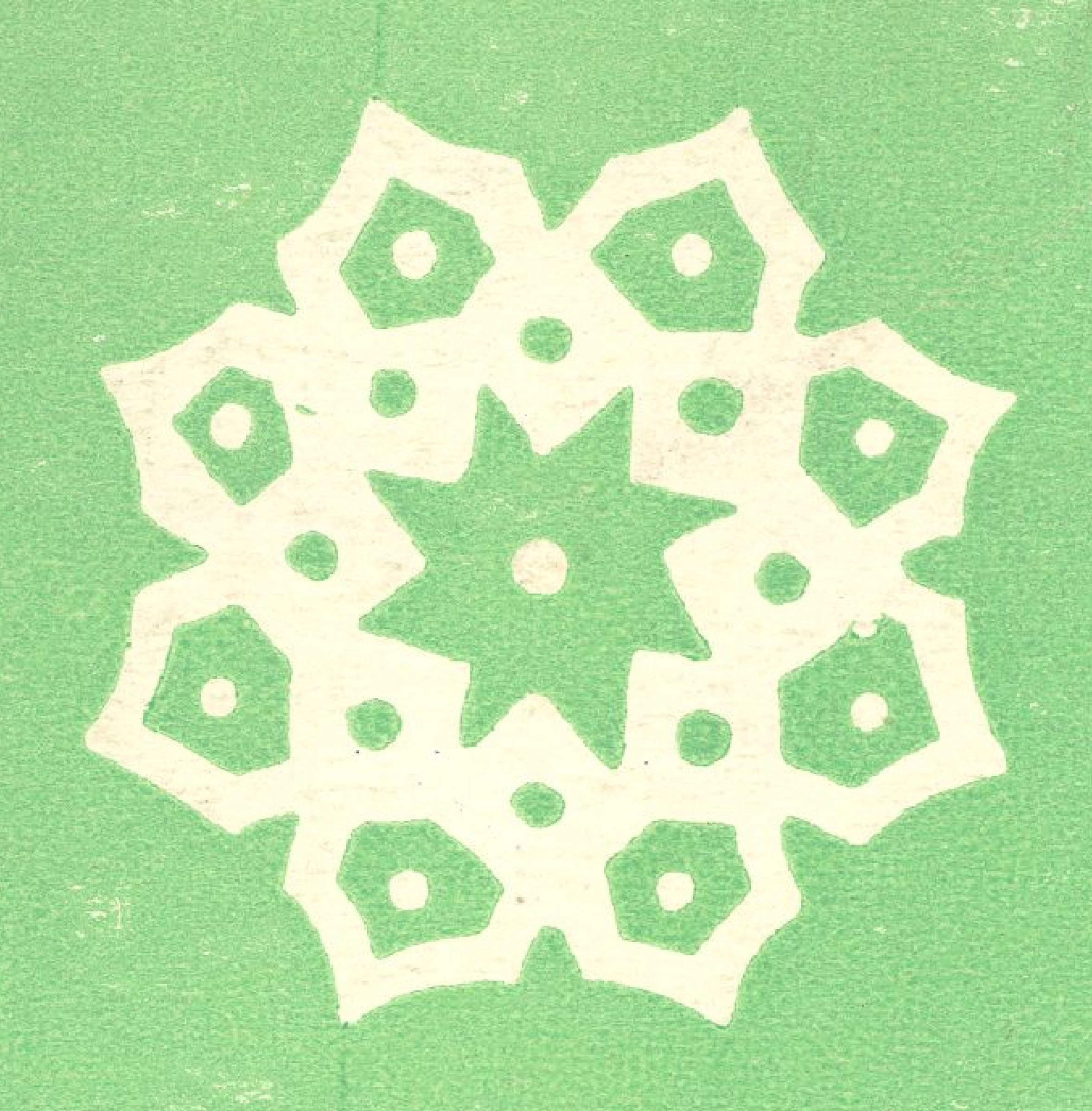


الدكتور محمد البهي





التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

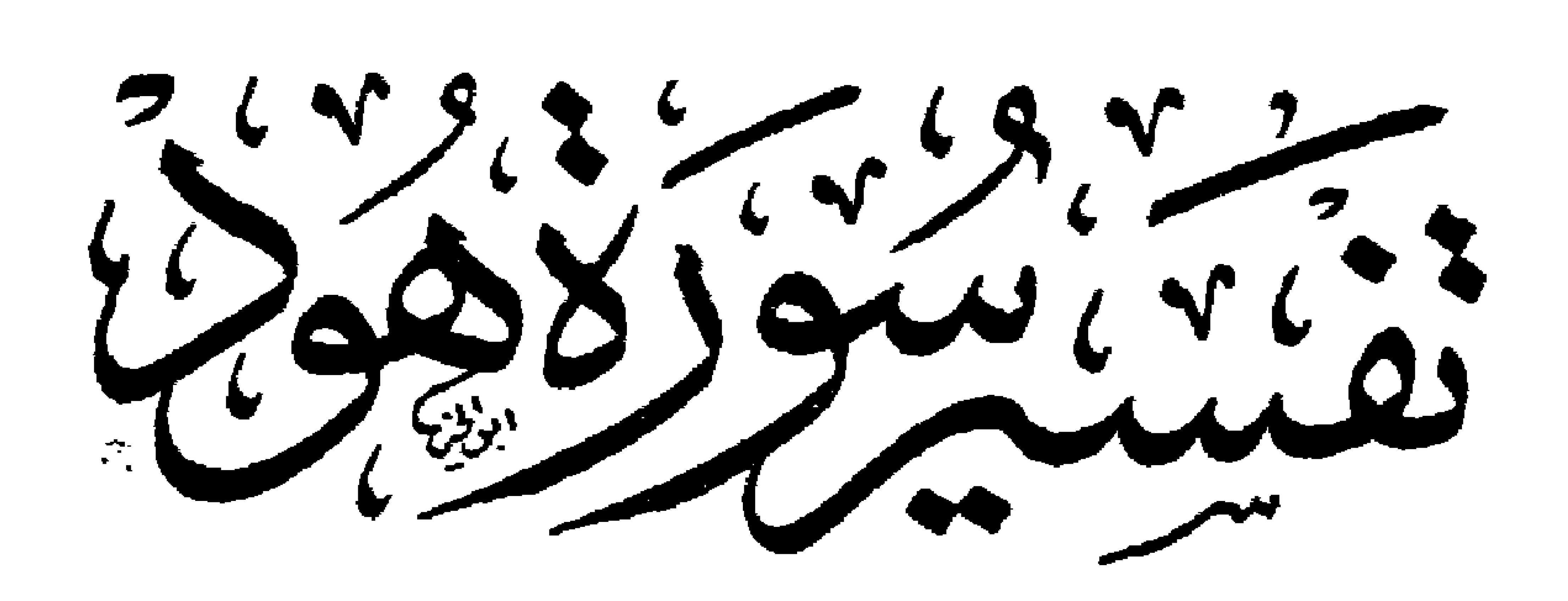
تفسير سورة هود

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ - شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة ت : ٩٣٧٤٧٠



الدكتور محمد البهي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم



القرآن في مواجهة المادية

الطبعة الأولى

شعبان ١٣٩٦ هـ

أغسطس ١٩٧٦ م

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة هود

مقـــدمة :

إن سورة هود – كأية سورة مكية أخرى – تعرض لأباطيل المادية فى إنكار وحدة الألوهية ... والكفر بالبعث فى الحياة الأخروية . وتستعين بالتاريخ وأحداث المجتمعات المادية السابقة فى توضيح : أن عاقبةالمادية فى سلوك المجتمع هى الطغيان .. . وعاقبة الطغيان هى زوال المجتمع الطاغى وزوال زعمائه المستكبرين فى الأرض .

ولكن هذه السورة – مع هذه الظاهرة المشتركة بين السور المكية – تشير إلى جملة من الظواهر الأخرى العامة ، التى تحكم طبيعة الإنسان . . . وطبيعة مجتمعه ... وطبيعة العلاقة بين فرد وآخر فيه . والآية الأولى فيها ، هى قول الله تعالى : « ألر . كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير » : تعنون فى إجمال لهذه الظواهر .

فالآيات التى أحكمت هى تلك الدالة على هذه المبادىء . وتفصيلها من صاحب الحكمة والخبرة وحده – وهو الله سبحانه وتعالى – جاء به الوحى فى سور أخرى عديدة ، وكذلك فى هذه السورة نفسها : فقد جاء بعد هذه الآية الأولى فى سورة هود جملة من الآيات تعدد هذه المبادىء . فقد جاء:

- قوله تعالى : « ألا تعبدوا إلا الله » . . . تعبيراً عن ظاهرة الوحدة فى الألوهية .

- وقوله : « إننى لكم منه نذير وبشير ».. تعبيراً عن وظيفة الرسول ، وهى وظيفة تبليغ ، وليست وظيفة تنفيذ .

• وقوله : « وأن استغفروا ربكم ، ثم توبوا إليه » ... تعبير عن ظاهرة التوبة ، والإقلاع عن عادات المجتمع المادى.

• وقوله : « إلى الله مرجعكم جميعاً ، وهو على كل شيء قدير »... تعبيراً عن البعث فى وقوعه ، والإيمان به .

• وقوله : « ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه » . . . تعبيراً عن ظاهرة انطواء المعارضة على العداوة المقنعة بالإيمان .

• وقوله : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين » ... تعبيراً عن ظاهرة كفالة الرزق من الله لكل صاحب حركة من الموجودات التى تتحرك ، إن هى سعت وتحركت فى سبيله .

• وقوله : « ... ولئن ، قلت : إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين » ... تعبيراً عن ظاهرة السخرية من الأعداء الماديين وإنكارهم البعث .

• وقوله : « ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن : ما يحبسه ؟ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » ... تعبيراً عن ظاهرة سخرية الأعداء الماديين من وعد الله بالعذاب لمن يكفر برسالته .

• وقوله : « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عنى ، إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر

كبير » ... تعبيراً عن ظاهرة الإنسان فى طبيعته كما هى ، وهى الطبيعة التى تيأس عند الأزمات... والتى تنكر الفضل من صاحب النعمة عند الرخاء .

● وقوله : « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا : لولا أنزل عليه كنز ، أو جاء معه ملك ، إنما أنت نذير ، والله على كل شىء وكيل » ... تعبيراً عن اهتزاز النفس الإنسانية مهما كان التأييد لها من صاحب الأمر كله وقت الأزمات .

● وقوله : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ،وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » . تعبيراً عن ظاهرة : أن متع الحياة الدنيا فى الحصول عليها ، والاستمتاع بها ليس مرتبطاً بالعمل الصالح ممن حصل عليها أو يستمتع بها .

● وقوله : « فلا تك فى مريه منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » .. تعبيراً عن ظاهرة الثقة التى يجب أن تتوافر لدى الداعى فى دعوته إلى ما يعتقد أنه الحق .

● وقوله فى آخر السورة : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ، ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » .. تعبيراً من ظاهرة الاستقامة كطريق للنجاح .

● وقوله : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، ومالكم من دون الله من أولياء ، ثم لا تنصرون » (١) .. تعبيراً عن عدم الاطمئنان إلى أعداء الإيمان بالله .

---

(١) آية ١١٣

• وقوله: «وأقم الصلاة طرفى النهار . وزلفاً من الليل . إن الحسنات يذهبن السيئات . ذلك ذكرى للذاكرين » (١) · تعبيراً عن مبدأ الإحسان ـ وفى مقدمة صوره : التسامح ـ وأثره الحميد فى النفوس .

• وقوله « واصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين » (٢) ... تعبيراً عن مبدأ الصبر ، وأنه أدخل فى معنى الإحسان .

• وقوله : « فلولا كان من القرون من قبلكم (أى المجتمعات السابقة) أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين » (٣) .. تعبيراً عن أن عدم تصدى بعض القادة للفساد فى المجتمع هو سبب انتشاره فيه.. وأن سبب الفساد هو مسايرة المترفين لترفهم إلى درجة أنهم يرتكبون الجرائم بسبب ترفهم .

• وقوله : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم ، وأهلها مصلحون » (٤) .. تعبيراً عن أن بقاء المجتمع وعدم زواله أو تغييره مرهون باستقامة زعمائه وصلاحية أفراده للبقاء .

• وقوله : ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك ، لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .. (٥) تعبيراً عن مبدأ أن استمرار اختلاف الناس بين الحق والباطل هو قانون الوجود البشرى ،

---

(١) آية : ١١٤
(٢) آية : ١١٥
(٣) آية : ١١٦
(٤) آية : ١١٧
(٥) آية : ١١٨ - ١١٩

لأن طبائعهم — وبالتالى مواقفهم — ليست واحدة . ومن هنا أيضاً كانت ضرورة اختلاف الجزاء بين الجنة والنار .

وهذه المبادىء الظواهر إذن التى جاءت فى سورة هود ، وعددها تسع عشرة ، وأشارت إليها بقول الله تعالى : « آلر . كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير » . . تتنوع إلى أربعة أنواع :

أولا : ما يتصل بدائرة الألوهية ، وهو :

(ا) وجوب عبادة الله وحده .

(ب) والعهد إليه وحده : بالتخلى عن عبادات المجتمع الماضى ، وهى عادات الوثنية المادية .

(ج) ومرد العباد فى الآخرة إليه ، دون غيره ، بعد مرحلتهم الدنيوية فى الحياة .

وثانياً : ما يتصل بدائرة الرسالة ، وهو :

(ا) أن وظيفة الرسول هى وظيفة المنذر فحسب .

(ب) وأن الرسول فى طبيعته بشر : يجوز عليه ما يجوز على الآخرين من ضيق الصدر ، وقت المحن .

(ج) وأنه يجب أن تتوافر لديه الثقة بالله ، فى الوقت الذى تهتز فيه نفوس الآخرين .

(د) وأن طاعته لأمر الله ، واستقامته ، وعدم تجاوزه لحدود هذه الطاعة : سبيل نجاحه فى دعوته وقيادته .

وثالثاً : ما يتصل بطبيعة الإنسان . . والمجتمع ، وهو :

(ا) أن الله يكفل الرزق لكل صاحب حركة فى الوجود ، إن هو باشر حركته فى السعى لتحصيله .

(ب) وأن طبيعة الإنسان – قبل توجيهها – هى تلك الطبيعة المترددة بين اليأس عند الأزمات .. وإنكار الفضل لصاحبه عند الرخاء .

(جـ) وأن متع الدنيا ، فى الحصول عليها أو الاستمتاع بها ، لا ترتبط بالاستقامة فى السلوك .

(د) وأن الإحسان ذو أثر حميد فى النفوس .

(هـ) وأن الصبر أدخل قبل غيره فى معنى الإحسان .

(و) وأن انتشار الفساد فى المجتمع هو نتيجة مباشرة لتقاعس بعض زعمائه : عن التصدى له .

(ز) وأن سبب انتشار الفساد هو مسايرة المترفين لترفهم ، إلى درجة أنهم بسبب هذا الترف يرتكبون الجرائم المتنوعة .

(ح) وأن بقاء المجتمع وعدم ترديه : مرهون فقط باستقامة الزعماء وصلاحية الأفراد للبقاء .

(ط) وأن الصراع بين الحق والباطل هو صراع أزلى وباق . وأنه يمثل قانون الحياة الإنسانية ، لاختلاف الناس فى خلقهم وفى طبائعهم ، وفى ومواقفهم ، ولذا سيظلون مختلفين .

(ى) وأن الجزاء الأخروى حق وضرورى ، طالما كانت المتع الدنيوية فى الحصول عليها أو فى الحرمان منها : لاترتبط بنوع العمل من الإنسان.

ورابعاً : ما يتصل بأعداء الايمان بالله ٠ وهو :

(ا) أنهم يحاولون إخفاء عدائهم وراء إعلان الإيمان ، إن هم أعلنوا هذا الإيمان .

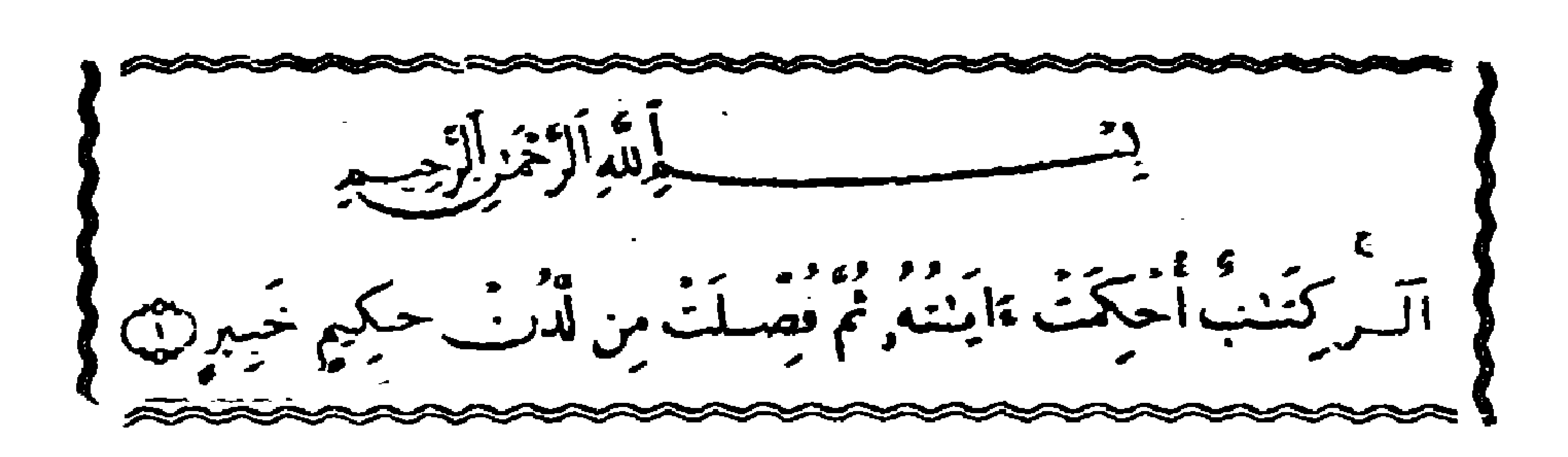
(ب) وأنهم ينكرون البعث . ويستهجنونه .

(جـ) وأنهم يستخفون بوعيد الله لهم بالعذاب .

(د) وأنهم لا يركن إليهم ، إذا ما أريد اتقاء الهزيمة وضمان النجاح.

وبهذا التنويع ترسم السورة إطار الهداية القرآنية الذى يتحرك فيه المؤمن بالله ، سواء فى اعتقاده . . أو فى علاقته مع غيره فى أمته . . أو فى سلوكه .. أو فى موقفه و . .لته لعدو الإيمان ورسالة الله . وتجىء سور أخرى بعد ذلك تفصل ما أجمل هنا .

* * *



يقسم الله سبحانه وتعالى فى بداية هذه السورة بثلاثة أحرف من الحروف الهجائية العربية وهى : الألف .. واللام .. والراء « آلر » ليؤكد أن مدخول القسم وهو قوله تعالى : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .. فى وضوحه وفى وقوعه : على نحو وضوح هذه الأحرف الثلاثة فى أنها من بين أحرف الهجاء العربى . وإذن مدخول القسم هنا لا يعتريه شك بحال فى صدقه ، إلا من رانت على قلبه غشاوة الكفر من أولئكم الوثنيين الماديين الذين يحكمون الإلف والعادة ، ويتخلون عن الإدراك والرؤية الواضحة ، فيما ينكرونه أو يتقولونه .

والكتاب الذى أحكمت آياته هو القرآن الكريم · وإحكام آياته هو صدقها فيما تعبر عنه . وما تعبر عنه هو مثل تلك المبادىء العامة التى أجملتها السورة · « ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (أى بعد أن ذكرت هذه المبادىء على وجه الإجمال فى السورة ، جاء تفصيلها فى سور أخرى من هذا الكتاب الحكيم . والذى أحكم هذه المبادىء هنا فى سورة هود ، ثم فصلها فى سور أخرى ، هو المولى سبحانه وتعالى .. هو ذلك الحكيم الذى يلازم الصواب قوله ·· والخبير الذى يحيط فى دقة بما يصدر عنه . ومثال لتفصيل ما أجمل هنا من مبدأ : وجوب عبادة الله وحده : قوله تعالى فى سورة النحل : (**ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا . أن اعبدوا الله ، واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليهم الضلالة . فسيروا فى الأرض**

فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل ، وما لهم من ناصرين) (١) . ومثال لتفصيل مبدأ الإيمان بالبعث قول الله سبحانه فى سورة النحل أيضاً : **(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى ! ، وعداً عليه حقاً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ليبين لهم الذى يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا : أنهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له : كن فيكون)** (٢) . . وكان ما جاء فى سورة النحل من الدعوة إلى وحدة الألوهية ، ووقوع البعث على نحو ما ذكر : تفصيلا لما جاء فى سورة هود من مبادىء عامة مجملة ، هو أن كلا مما جاء فى السورتين ، فيما يتصل بالمبادىء التى ذكرت فى مقدمة السورة : موجه إلى المكيين الوثنيين . ولكن ما جاء فى سورة النحل هو أكثر توضيحاً سواء فى عرض المبدأ ، أو فى إقامة الحجة ضد من ينكره) » .

أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

وبعد القسم وتأكيد إحكام آيات القرآن ، ثم توضيحها المرة بعد الأخرى : أخذت السورة تعدد بعض هذه الآيات المحكمة ، وهى التى تعبر عن مبادئ لا تتخلف ، فتقول : « ألا تعبدوا إلا الله » (فتخاطب الوثنيين المكيين كشرط أولى

---

(١) النحل : ٣٦ — ٣٧

(٢) النحل : ٣٨ — ٤٠

يجب أن يتوفر لديهم عند تحولهم من المجتمع الجاهلى ، وهو المجتمع المادى، إلى المجتمع الإنسانى . . وتطلب إليهم طرح الخضوع ، لأى موجود ، عدا الله، أى تطلب إليهم عدم الشرك فى العبادة. إذ الخضوع لغير الله لا ينطوى فحسب على إذلال للإنسان العابد . بل ينطوى أيضاً على انقسام البشرية إلى مجموعات وأحزاب ، بعدد الآلهة التى تعبد بينها من دون الله، وانطواء العبادة لغير الله على إذلال العابد: يبدو فى أن غير الله لا يساوقه فى كماله، أى لا يساوقه فى صفاته التى تعبر عن الكمال المطلق، وفى مقدمة هذه الصفات : البقاء الذى لا ينتهى . . والقدرة التى لا تحد. ومن يعبد غير الله إذن يعبد من يجوز عليه الفناء ، ويطرأ عليه العجز . وليس شيئاً ما يكون مصدر إذلال للإنسان سوى أن يخص الإنسان بعبادته فانياً أو عاجزاً . ومجتمع يكون أفراده أذلاء ، لأنهم يعبدون غير الله . . أو يكونون منقسمين بينهم إلى أحزاب ومجموعات : لا يكون مجتمعاً إنسانياً . إذ المجتمع الإنسانى هو المجتمع الكريم بأفراده الكرماء ، والمجتمع المتماسك بالأخوة بين هؤلاء الأفراد . وعبادة الله وحده إذن كذلك، مبدأ من المبادئ التى جاء إحكامها فى كتاب الله من لدن حكيم خبير) . « إننى لكم منه نذير وبشير » .

(والمبدأ الثانى تحديد وظيفة الرسول عليه السلام فى دعوته إلى الحق ، وفى دعوته إلى نقل المجتمع من الوضع الجاهلى الوثنى إلى الوضع الإنسانى أو الإسلامى . . تحديدها بأنها وظيفة المبلغ والداعى : ينذر العصاة بما أعده الله من عقاب لهم ، ويبشر المؤمنين المخلصين فى إيمانهم بما أعده من جزاء حسن للمؤمن المخلص . وليست وظيفة القيم ولا وظيفة المكره على اتجاه معين ، ووظيفة القيادة فى المجتمعات البشرية إذا ابتعدت عن الإكراه والإلزام كانت قيادة أخلاقية ، تنطوى على رعاية الكرامة الإنسانية لدى

الأفراد ، ولم تكن قيادة سوق وحمل تنتفى معها كل حرمة لإنسان له حريته ومشيئته واستقلاله) . « وأن استغفروا ربكم ، ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذى فضل فضله ، وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم ، وهو على كل شىء قدير » .

(والمبدأ الثالث دعوة الجاهلين ، وهم الوثنيون الماديون بمكة ، إلى العدول عن المجتمع الجاهلى الذى يعيشون تحت لوائه ، والانتقال إلى مجتمع آخر هو المجتمع الإنسانى بصفاته الفاضلة ، التى تضمن للأفراد كرامتهم ، وحريتهم ، والتزامهم الخلقى فى السلوك والتصرفات . وإذا انتقلوا إلى هذا المجتمع الإنسانى ، فإنهم سيمتعون فى مرحلتهم الدنيوية بالمستوى الإنسانى الكريم الذى وصلوا إليه ، وهو متاع حسن . فإذا انتهى أجل الدنيا ، فإن الجزاء الأخروى سيصيبهم وفق ما أحسنوا إلى أنفسهم بالإيمان فى دنياهم .

أما إذا لم يعدلوا عن وضع مجتمعهم المادى ، وأعرضوا عن دعوة الرسالة إلى الانتقال إلى المجتمع الإنسانى ، وظلوا يباشرون مفاسد المادية : فإنه سينتظرهم عذاب شديد ، عندما يعودون إلى الله بعد بعثهم ، والله هو القدير على إحيائهم مرة ثانية ، وعلى جزائهم حسبما اقترفوا من كبائر فى حق الإنسانية . وهى كبائر الشرك والضلال) .

* * *

أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) * وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ (٦)

وإذا كان هؤلاء المكيون يظنون — أو يعتقدون — أنهم يستطيعون أن يخفوا كفرهم أو عدوانهم لصاحب الرسالة عليه السلام ، بصورة أو بأخرى فإنهم على خطأ جسيم . لأن الله الذى كلفه بالرسالة يعلم كل أمر لديهم ، بقى مكتوماً ، أو أعلنوه بينهم .. إنه سبحانه يعلم خاصة أنفسهم ، وما يردده كل واحد منهم ، حين يكون بعيداً عن الأنظار ، ومتوارياً تحت ثيابه يستغشى بها ، فى عزلة عن غيره ، فهو العليم بذات الصدور ومايدور فيها من خوالج قد لا تظهر إطلاقاً فى حين من الأحيان : « ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ، ألاحين يستغشون ثيابهم ، يعلم مايسرون ومايعلنون ، إنه عليم بذات الصدور » . والله الذى يعلم ما فى الأنفس يعلم كذلك نشأة كل ذى حركة فى الوجود ومصيره . « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين » (أى يعلم : أين كان ، وأين سيكون . وعلمه بذلك مسجل تسجيلا واضحاً ، لا يختلط بعضه ببعض ، ولا ينقص أو يزيد فيه شىء . وذلك يدل على أن الله الذى يعلم نشأة الكائنات المتحركة ومستقرها ، ويعلم مصيرها ومستودعها : يعم حتم ما يخفيه هؤلاء الماديون المكيون من عداوة وبغض للرسول عليه السلام ، أو كفر برسالته ، مهما تحايلوا على إخفاء مايريدون أن يخفوه فى صورة ما . ثم فوق أنه سبحانه له هذا العلم الدقيق والمحيط : فهو يتكفل بالرزق لكل دابة تدب على الأرض ، أى لكل ذى حركة يمارس حركته عليها حسبا

خلق ، فى السعى لتحصيل رزقه ومعنى كفالة الله بالرزق معاونته صاحب الحركة عندما يتحرك فى سبيله ، ويباشر خصائص خلقه . والإنسان فى مقدمة هذه الكائنات يتكفل الله برزقه ، إن هو باشر حركته فى السعى لتحصيله ، ومقتضى أن الله يعاون الإنسان على رزقه : أن الإنسان يشكره بالإيمان به وبرسالة رسوله على هذه المعاونة . وعلى هذا : فالمكيون الماديون فى موقفهم من رسالة الرسول عليه السلام لا يسايرون منطق الواقع بكفرهم بالرسالة ، ولا يخدمون أنفسهم حين ما يخفون كفرهم بها أو يناورون وراء حجج واهية لا تغطى خطأهم) .

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

والمبدأ الرابع : وجوب الإيمان بالبعث ، وموقف هؤلاء الماديين المكيين منه : « ... ولئن قلت : إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين »(فإنه موقف المنكرين له ، الذين لا يستطيعون بحال أن يتصوروا وقوعه . ولذا فإنهم يرون الدعوة إليه دعوة إلى الخداع والسحر الواضح . وعدم استطاعتهم أن يتصوروا وقوعه آت إليهم من شدة إيمانهم بالحياة الدنيا وحدها ، ووقوعهم تحت تأثير مظاهرها المادية من : قوة ، وزعامة ، ومال ، وأولاد .

ولكن وقوع البعث فى ذاته أمر هين . والذى يعلم أن الله خلق السموات والأرض وقصد من خلق هذا الوجود اختبار المؤمنين والكافرين به :

يسهل عليه الإيمان بأمر العودة إلى الله فى حياة أخرى . أى يسهل عليه الإيمان بالبعث) . «وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام»(وخلق السموات والأرض قصد به خلق الوجود كله . أما أن هذا الخلق قدوقع فى ستة أيام فالغاية من هذا التحديد له بالأيام الستة : أن يدل الله الإنسان على مبدأ التطور فى الحياة الإنسانية خاصة . أى يشير له إلى أن سنة الحياة هى التدرج ، وليست الفجأة . فالإنسان فى نموه من الطفولة إلى الرشد لا ينتقل فجأة . وإنما يمر بمراحل يتولد بعضها من بعض . والمجتمع كذلك فى سقوطه أو فى قيامه ، لا يسقط ولا يقوم فجأة . وإنما عوامل السقوط تتجمع جنباً إلى جنب : وعوامل القيام يضم بعضها إلى بعض فى فترات . وعلى الإنسان أن يتعلم وأن يؤمن بالتطور فى عمله ، وفى نظرته إلى أحداث الوجود كلها . وليست هناك غاية أخرى من وراء هذا التحديد . فالله بقدرته الكاملة يستطيع أن يقول للشىء : كن ، فيكون ، فوراً وبدون انتقال من وضع إلى وضع . والعدد إذن ليس له مفهوم سوى الدلالة على هذا التدرج .)« وكان عرشه على الماء» (أى خلق الله الوجود كله ، ولم يكن هناك قبل خلقه على هذا النحو الذى هو عليه سوى المـــاء . والقصد من الإشارة إلى وجود الماء قبل أى شىء آخر بعده : هو أن الماء أصل التكوين لهذا العالم الطبيعى من سموات وأرض وما بينهما ، وما على الأرض من مخلوقات أخرى . فكون عرش الخالق سبحانه كان على الماء قبل خلق السموات والأرض معناه ، هو أن الماء كان موجوداً قبل أن يخلق العالم منه مفصلا على نحو ما يوجـــد عليه . وليس معناه : أن الماء نفسه لم يكن مخلوقاً لله جل جلاله : فالكل مخلوق لله . ولكن خلق الله للماء سبق خلقه لما عداه منه : وعندئذ يصدق على هذه المرحلة فى الوجود : أن الله كان ووجد معه الماء . وبهذا يمكن أن يتصور الإنسان :

* أن الله سبحانه كان موجوداً ولم يوجد معه شىء ما ،

* ثم كان موجوداً ووجد معه الماء ،

* ثم هو موجود ومعه العالم بسمائه وأرضه) «ليبلوكم: أيكم أحسن عملا» (أى والغاية من خلق هذا العالم هو اختبار الإنسان الذى يعيش فيه : أيطيع رسالة الله ، بعد أن سواه الله وخلقه على نحو متميز به عما سواه فى هـذا الوجود . إذ زوده بالعقل والإدراك ، وبعد أن عرف بقصة أبيه آدم فى الجنة يوم أن عصا ربه هو وحواء . وتحديد غاية الوجود بابتلاء الإنسان : ليشير إلى أن ما فى الوجود كله هو لمنفعة الإنسان ، أو لتمكين الإنسان من الحياة على هذه الأرض فترة يبتلى فيها : «الله الذى خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين : وسخر لكم الليل والنهار » (١) . فهاتان الآيتان توضحان : أن ما فى هذا الوجود على نحو ما هو عليه فى خلقه هو : لفائدة الإنسان أولا . والغاية النهائية للوجود كله هو اختبار الإنسان وابتلاؤه فى طاعة الله) » .



(١) ابراهيم : ٣٢ – ٣٣

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

والماديون المكيون عندما يواجهون قضية البعث بالتحدى والكفر به ، وعندما يصفون الدعوة إليه بالخداع لا يقفون بتحديهم وبسخريتهم عند هذا الحد . بل يتمادون فى سخريتهم وتحديهم فيعلنون : أن ما وعد به الله من عذاب على الكفر به إن هو إلا مجرد تهديد لا يقع إطلاقاً اليوم أو غداً : « ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن : ما يحبسه»؟ (أى وإذا أخر الله — لحكمة يعلمها — إنزال العقاب بالكافرين بالبعث لفترة ما فى حياتهم ولأجل يعلمه هو وحده : ظنوا من هذا التأخير عدم وقوعه ، وسألوا فى سخرية عن السبب الذى دعا إلى تأخيره إن كان سيقع مؤكداً ، فيقولون : ما يحبسه ؟ أى أى شيء يمنع ويحول «دون وقوعه ؟)« ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم » (أى ولكن عندما يحين وقت وقوعه سيلحق بهم حتما ولا ينصرف عنهم إطلاقاً) « وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » (وسيتحققون ساعتئذ : أنه الجزاء على استهزائهم وسخريتهم بالبعث وبعذاب الله بهم ، دون أن يفارقهم . وشاء القرآن بعد ذلك : أن يوضح ظاهرة للطبيعة البشرية تلازمها ، إذا لم تهذب بهداية الله ، وتلتزم بالطريق المستقيم الذى ترسمه هذه الهداية . وهذه الظاهرة : أن الإنسان بحكم طبيعته يميل فى الشدة والأزمة إلى اليأس بينما هو بحكم ، هذه الطبيعة كذلك : يميل

إلى الاستعلاء والترفع فى وقت الرخاء • فنى الأزمات يضرع ويذل إلى الإنسان أو الله ، إلى درجة الكفر بالقيم العليا كلها ، بعد أن لم يسعفه تذلله وتضرعه ، وبعد أن يصل به إلى حالة اليأس من الخروج من شدته. وعندما يواتيه الرخاء ، يطغى على الآخرين بوسائل النعمة التى لديه ، ويستعلى فى طغيانه عليهم حتى يكفر بمن عداه: بصاحب النعمةعليه أولا ،وهوالله سبحانه وتعالى ، ثم بغيره كذلك معه • فهذا التقلب بين الجانبين يعبر عن طبيعة الإنسان كما هى •ولكن من يأخذ نفسه بهداية اللهيسير فى اتجاهواحد وهو : أن النعمة بالصحة ، أو بالمال ، أو بالقوة والأولاد ، أو بالجاه والسلطة ، لاتخرجه عن الخضوع لله ، وبالتالى لاتجعله يطغى بها ،فضلاعن أن يكفر بسببها ، كما أن زوال هذه النعمة عنه ، لايغير من سلوكه وإيمانه بالله شيئاً ، فهو الصابر والباقى على إيمانه ، وهو إذ يعتز ، يعتز باللهوحده ، وإذ يلجأ إلى أحد، يلجأ لله وحده• فالله هو الغاية ، وليست الدنياومتاعها. والقرآن بتوضيح هذه الظاهرة يريد أن يطمئن الرسول محمداً عليهالسلام بأن مايلقاه من المكيين الماديين من معارضة وكفر للقضايا التى كلف بالدعوةإليها: أمر ناشىء عن اتجاههم المادى فى الحياة ، وليس أمراً يخص دعوته أو يشير إلى ضعف فيها) .« ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة»(والرحمةهى النعمةوالفضل من : صحة ، ومال ، وقوة ، وولد...) «ثم نزعناها منهإنهليؤوس كفور» (أى كثير اليأس وقريب إلى الكفر بالله ، بسبب زوال النعمة) . « ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته » (أى بعد ضرر لحق به)« ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور » (أى عندئذ — عندما يأتيه الفرج بعد الشدة — لا يعتقد بأن الله سبحانه هو الذى غير حال الضرر الذى نزل به بحال الرخاء الذى جاء على أثره . وإنما يرى أن هذا التغيير أمر عادى: على معنى إذا ذهب الضرر .. حل محله الرخاء ، بدون حاجة إلى خالق الكون . وهذا

الرأى هو رأى المادى فى اتجاه الحياة وفى النظر إليها . ولذا فهو ليس فى حاجة إلى شكر الله آنئذ . بل هو فرح فخور من نفسه وبذاته .. أى بل يتمالكه الفرح والاعتزاز ، كأن أمر التغيير كان بيده هو ، وقد نجح فيه ، بدون مساعدة له من أحد . ولكن إذا كان تغيير الأمر ليس بيد الله ، وإنما هو أمر عادى كما يقول المادى : فلماذا ييأس هذا المادى إلى درجة الكفر بكل شيء فى الوجود عندما تزول النعمة عنه ؟ إذ كان منطقه عندئذ يقضى عليه بالاحتمال حتى يتغير الأمر من نفسه مرة ثانية ، بدون تدخل الإرادة الإلهية فيه) « إلا الذين صبروا ، وعملوا الصالحات » (أى ومع أن هذه الظاهرة أمر من أمور الطبيعة البشرية فالمؤمن بالله ، والذى يصبر على النعمة عند وجودها فلا يخدع بها ، وعند فقدها فلا ينزعج بضياعها منه ، والذى يسلك دائماً طريق الصالحين : قد أبعد بإيمانه وبصبره وبسلوكه الصالح . هذا الأمر العام الذى يعد كشأن من شئون هذه الطبيعة البشرية وبذلك هذب هذه الطبيعة فيه) « أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » (أى ومن أجل تهذيبهم للطبيعة البشرية فيهم ، وأخذهم موقفاً آخر فى الحياة غير موقف الإنسان المادى من النعم عند وجودها ، أو عند زوالها : يعدهم الله بالغفران على ما كان لهم من سلوك مادى فى المجتمع الجاهلى السابق على المجتمع الإنسانى الذى يؤمنون به الآن ، كما يعدهم بجزاء أوفى على تهذيبهم وتحويل شأن من شئون الطبيعة البشرية فيهم ، يجعل منهم بسبب سلوكهم : أصحاب مستوى فاضل فى الإنسانية يتجنبون الضرر على الأقل إن لم يقدموا الخير للآخرين) .

★ ★ ★

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

المبدأ الخامس : دعوة الرسول محمد عليه السلام إلى الثبات فى وجه تحديات الماديين المكيين ومعارضتهم لدعوته ، وعدم التأثر بعواطف هؤلاء ونزواتهم وبما يقولونه أو يدعونه فى شأنه ، أو فى شأن القرآن . « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك » (أى لاينبغى أن تتأثر أيها الرسول — عليك صلوات الله — بالرغبة فى إيمان هؤلاء الماديين لصلة قرابتهم بك أو لوضعهم الاجتماعى وزعامتهم فى قومهم . ومن أجل ذلك ربما تدور بعض الهواجس فى نفسك بإغفال بعض مانزل عليك من وحى أو بإرجائه لوقت آخر ، مما شأنه أن لايجوز رضاهم عنك إذا أبلغته إياهم ، وبالأخص الدعوة إلى طرح الشرك والوثنية) « وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك» (وكذلك لاينبغى أن تتأثر فتضايق بما يوجهونه إليك من نقد ، فى أنك لست من أثرياء القوم ووجهائهم .. أو فى أن رسالتك لم يصحبك فيها إليهم ملك من الملائكة أمارة على اصطفاء الله لك لرسالته فى هذا الحين .

ومما يؤثر على صاحب الاتجاه المادى فى القبول أو الرفض ، وفى الخضوع أو الاستعلاء : المظهر الذى يواجهه به الطرف الآخر . فإن كان صاحب ثراء أو جاه ، خدع وتأثر بثرائه وجاهه ، وإن كان ممن ليس من أصحاب الثراء ،

أو من علية القوم . فقوله مشكوك فيه على الأقل ، مهما تضمن من وضوح الحجة ما يقنع غير المتحيز .أما الملك فى صحبته للرسول ، فإن المادى يتأثر بهذه الصحبة فى قبول دعوة الرسول ، لأن الملك عندئذ من نوع آخر غير نوع الإنسان . ومن أجل ذلك يكون لصحبته أثر . إذ المهم فى نظر المادى أن يكون الطرف الآخر متميزاً عليه ، ويملك مالا يملكه هو فى حياته) «إنما أنت نذير»(لا ينبغى أن تتأثر بهذا أو بذاك . لأنك لست صاحب زعامة ورياسة ، ولا تطلب ملكاً وحكماً . إنما أنت فقط داع إلى الحق تبشر المؤمنين به وتنذر المعرضين عنه)« والله على كل شيء وكيل»(ثم الله فى نهاية الأمر هو صاحب الشأن فى الإيمان والكفر. هو الذى يجزى المؤمنين والكافرين على السواء ، ولست أنت فمسئوليتك مسئولية خاصة ومحددة. وهى مسئولية الدعوة فحسب.. مسئوليتك مسئولية أخلاقية، إنسانية ،لا تملك معها سوطاً، تضرب به ، ولا جزاء توقعه على أحد . فالوكيل والمفوض فى أمر الوجود كله هو الله سبحانه وتعالى) . « أم يقولون افتراه » (أى كذلك لا ينبغى أن تتأثر ويضيق صدرك إن هم نقلوا النقد من شخصك إلى رسالتك ،وهى كتاب الله وقرآنه ، فادعوا أنه لا يعبر عن الحق وإنما هو كذب وافتراء) « قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » (ويكفى عندئذ أن تتحداهم ، بأن يأتوا بعضاً منه ، وليس كله ، وليكن هذا البعض عشر سور . ثم تترك لهم الحرية فى أن يكتلوا كل إمكانياتهم ، ويدعوا من يشاءون من أعوانهم ، إن كانوا جادين فى ادعائهم كذب القرآن : وتحديهم بالإتيان بعشر سور مثل القرآن قصد منه التيسير على هؤلاء الماديين المكيين ، كما قصد هذا الغرض نفسه من تركهم أحراراً يدعون من يشاءون غيرهم لمساعدتهم)« فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله » (وإذا هم لم يأتوا بعشر سور مثله مفتريات كما يدعون —

ولن يأتوا بها — فيجب عندئذ أن يستقر العلم فى نفسك ، دون مراودة شك فيها على الإطلاق : أن هذا القرآن ليس من صنعك، ولامن صنع أحد من البشر ، ولذا ليس هو مفترى ومختلقاً على الله سبحانه وتعالى . وإنما هو وحى من عنده جل جلاله . وإذ يعلم الله مسبقاً أن هؤلاء الماديين لا يستطيعون أن يأتوا بشىء مماثل للقرآن : فتحديهم بالإتيان بمثله هو لكشف عجزهم أمام أنفسهم وأمام الآخرين ، وفى الوقت نفسه تسجيل عليهم: أنهم يرمون بالتهم فى غير تبصر بالأمور ، ظناً منهم ، أن الاتهام والادعاء كاف فى إحراز الحجة على الخصم) «وأن لا إله إلا هو»(كما يجب أن يستقر فى نفسك فى غير تردد : أن الوحدة فى الألوهية حقيقة لامرية فيها ، وأن الوجود كله ينبثق عن هذه الوحدة، ويعطى الدليل الصريح عليها) «فهل أنتم مسلمون؟»(واتجه الآن أيها الرسول — عليك صلوات الله — إلى هؤلاء المكيين الماديين ، واسألهم بعد أن أدانتهم الحجة ضد ما وجهوه إليك أو إلى كتاب الله من نقد ، عما هو أولى بهم فى تحديد موقفهم . أليس الأولى بهم : أن يسلموا ويتجهوا إلى الله وحده ، خاضعين له ، ومنيبين إليه ؟) » .

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

وليس هناك إكراه لأحد من الناس على قبول الإيمان بالله وحده، وعلى الطاعة له . ليس هناك إكراه مباشر أو غير مباشر : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لايبخسون » (إذ أن من

يسعى إلى الحياة الدنيا وحدها .. يسعى إلى متعها وزينتها وجاهها ، بعيداً عن الله فيها : لا يحال بينه وبين ما يسعى إليه ، فضلا عن أن يعاقب بالحرمان منه . وإنما يوفى إليه ما يعمل من أجله فيها ، ولايبخس منه شيء إطلاقاً . أى أن الله سبحانه لا يربط الحصول على متع الدنيا بالإيمان به . وإنما هما أمران فى إرادته ، لا شأن لأحدهما بالآخر . فالذى ينصرف عن الإيمان بالله لتحصيل الدنيا لايعوق من الله دون الحصول على متعها لأنه يكفر به . بل إن كفره بالله لايسبب أى نقص له فى نصيبه منها . والله سبحانه جلت قدرته يعطى بذلك : المثل الكامل والواضح للإنسان فى أن لقمة العيش للإنسان فى حياته لاترتبط بولاء الإنسان لحاكم أو زعيم ما فى أمته وجماعته . إذ الله لايبخس الكافر به حظه من متع الحياة ، وليس حقه فى لقمة العيش فحسب فقد خلق الإنسان وكرمه فى خلقه بالإرادة والمشيئة . ولذا لايريد سبحانه أن يعطله من هذه المشيئة ، لو ربط فى حياته بين وجوب إيمانه بالله وحصوله على متع الدنيا . ويقول الله فى سورة الزخرف تأكيداً لعدم الربط بين الأمرين : **(ولولا أن يكون الناس أمة واحدة** (أى فى الكفر) **لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ، ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون . وزخرفاً ، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين)** (١) . « أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار » (ولكن جزاء الله للماديين الذين يركزون سعيهم فى الحياة الدنيا على المتع المادية فيها وحدها ، وينصرفون عن الله بالكفر به وبرسالة رسوله : ليس الحرمان من متع الدنيا ، بل الحرمان من نعيم الله

---

(١) الزخرف : ٣٣ – ٣٥ .

فى الآخرة . لأن هذا النعيم جعل جزاء للمؤمن وحده ، بينما نار جهنم فى تلك الآخرة : جعلت مصير الكافرين بالله فى دنياهم) « وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ماكانوا يعملون » (وكان الحرمان من نعيم الله فى الآخرة جزاء لأولئكم الماديين الذين وقفوا نشاطهم وسعيهم فى مرحلة الدنيا على المتع المادية وحدها ، وأنكروا البعث والآخرة ، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً : بسبب أن نشاطهم فى الدنيا كان نشاطاً عديم الجدوى والقيمة فى سبيل الإنسانية وخيرها فهو نشاط باطل ، لأنه نشاط أنانى ومن أجل الذات وحدها . وقد يكون العبث والفساد هو السبيل لتحصيل المتع الدنيوية. ولذا كان ما يحصله فى الدنيا مهما كانت قيمته المادية فيها لا يوصل إلى إنقاذه من مصير النار فى الآخرة . فقد حبط عند الله فى الاعتبار ما صنعوه وسعوا إليه فى دنياهم) » .

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

وأمر القرآن الآن وشأن الإيمان به : واضح . فالذين تتجلى لهم فى هذا الوجود الدلائل البينة على وحدة الألوهية ، ويتلوها لديهم هذا الكتاب المصدق الذى أحكمت آياته ، شاهداً على : أنه لا إله إلا هو ، ومن قبله كتاب موسى وهو التوراة إماماً يرشد إلى دعوة التوحيد ، ويبشر بالرحمة لمن يؤمن بها .. هؤلاء لا يؤمنون بالقرآن ، وليس فى طريق إيمانهم به ما يعوقهم عن ذلك : « أفمن كان على بينة من ربه ، ويتلوه شاهد منه ، ومن

قبله كتاب موسى إماماً ورحمة . أولئك يؤمنون به » . ومن عدا هؤلاء فإنهم يكفرون به . سواء أكانوا من المشركين الماديين الذين أعماهم ضلال الشرك وحيرته . أم من أهل الكتاب الذين حال الحرص فيهم على الزعامة بينهم وبين الإيمان به . ومن يكفر من هؤلاء وأولئكم فالنار موعده فى الآخرة: « ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده » (أى من أهل الشرك ومن أهل الكتاب . إذ كلمة الأحزاب عندما ترد فى القرآن يقصد منها فئات الكافرين مجتمعين: من مادى لايؤمن بالله . ومن أهل كتاب يؤمن بكتاب سابق على القرآن . ولكن لا يؤمن بالقرآن نفسه) .

وإذا كان شأن القرآن فى وضوح أمره هو على هذا النحو . من أن من يكفر به لايكفر لعدم وضوح الدليل الوجودى أو التاريخى على صدق ماينطوى عليه . ولكن لحائل من التقاليد الماضية أو الحرص على الدنيا . . فيجب أن تطمئن نفس الرسول . وهو محمد عليه السلام . وتركن إلى أن القرآن حق من الله لامرية فيه . ولا تتأثر نفسه إطلاقاً بمن يكفر به . إذ كفرهم ليس عن شك فى صحته . وإنما لسبب آخر خارج عن موضوعه . على أن من يكفر به أكثر ممن يؤمن به . « فلاتك فى مرية منه » (وهو القرآن الذى تحدثت عنه السورة فى آيتها الأولى فى قول الله تعالى: «آلر . كتاب أحكمت آياته . ثم فصلت من لدن حكيم خبير ») « إنه الحق من ربك » (أى إن القرآن أمره صدق وثابت فى نسبته إلى الله) « ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » (إذ أن من يستخلص الدليل من الوجود المشاهد على أن وراءه خالقاً له واحد: أقل فى العدد عادة ممن يخدعه هذا الوجود ، فيقف عند ظواهره ، دون أن يصل بتفكيره إلى العمق وراء هذه الظواهر ، وبذلك لايتعدى إيمانه ، مايراه ويشاهده فى هذا الوجود ، من زينة ومتع ، وينكر ما عدا ذلك ، ولو كان

الخالق الموجد له . ولوطولب هذا المادى بالإيمان بالله ، لم يكن الجواب على ذلك إلا قوله : إننالم نره ، ولذا لانؤمن به ، ويحكى القرآن مثل هذا الجواب عن قوم موسى ، عندما سقطوا فى المادية ، وأصبحوا لايرون موجوداً يؤمنون به فى هذه الحياة إلا ما هو مادى ومحس ، فى قول الله تعالى **(وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة)** (١) .
ويطلق القرآن على هؤلاء الذين يقفون بتفكيرهم وبمنطقهم عند ظواهر هذا الوجود ، واقعين تحت إغرائها : بالذين لايعلمون ، أى الذين لم يصلوا فى معرفتهم إلى درجة العلم ، على نحو ما ورد فى قول الله تعالى : **(وقال الذين لايعلمون لولا يكلمنا الله ، أو تأتينا آية** (أى مادية) **كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم ، قد بينا الآيات لقوم يوقنون)** **(٢)** وهؤلاء الذين يوقنون من شأنهم أن يصلوا إلى اليقين بالدليل . وهم أولئكم الذين يستخلصون من أمارات الوجود المشاهد ، الدليل الواضح على أنه لا إله إلا الله ، وحده) .

وإذن هناك بين الناس : من عنده الاستعداد إلى الإيمان بالله وحده ، والوصول إلى اليقين بذلك ، وهم القلة بينهم . وهناك من بينهم أيضاً من يقف إيمانه عند حد ما يحس به ويشاهده ، وهم الكثرة الكثيرة فيهم .

والناس جميعاً لايبلغون الرشد فى التفكير والمنطق ، حتى يوم الدين ، وأكثرهم يبقى عند حد الطفولة العقلية ، لايؤمن إلا بالمحسوس ، مهما كان مستوى الحضارة البشرية بينهم ، إذ الحضارة البشرية مركب تقيمه القلة وحدها من بين الناس ، كأثر للعلم والثقافة ، والفن . أى كأثر للادراك ، والذوق فى الإنسان .

---

(١) البقرة : ٥٥ .
(٢) البقرة : ١١٨ .

أما الأكثرية فلا تبنى ، بل قد تهدم ما أقيم من بناء حضارى من غيرها ولهذا : كان أكثر الناس غير مؤمنين ، وستظل الأكثرية من الناس غير مؤمنة ، وبالتالى ستظل غير مشاركة فى الحضارة وفى المستوى الإنسانى الفاضل) » .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)

وهؤلاء الذين لم يؤمنوا بالله ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان : لأنهم ضلوا عندئذ ، السلوك الإنسانى السوى فى الحياة . ولذا فهم يتخبطون فى العبث والفساد . وأشدهم ظلماً لنفسه من بينهم من يدعى مع ذلك كذباً على الله ، فيجعل غيره نداً له وشريكاً معه فى استحقاق الألوهية .. كما يجعله أباً لإناث هم الملائكة . . أو ينسب القرآن لغير الله . . إلى غير ذلك من الادعاءات الكاذبة : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً » (أى ليس هناك من بين

الكافرين بالله من هو أكثر ظلما واعتداء : من ذلك الذى يتقول الكذب على الله : فى صفاته .. وفى خلقه . . وفى وحية ورسالته إلى الناس . لأنه ظلم نفسه مرتين : مرة بعدم إيمانه ، وأخرى بافترائه واختلاقه على الله ماليس بحق إطلاقاً) « أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم »(وهذا النوع من الكافرين ساعة أن يعرض على الله يوم الجزاء يواجه بمن ادعاهم كذباًوبهتاناً : شركاء لله .وهؤلاء ينطقون بشهادتهم على أن هذا الادعاء كان كذباً . وبذلك يضاف إلى كفر هذا النوع كذبه وافتراؤه على الله ، معلناً هذا الكذب والافتراء ممن أله منه من غير الله) « ألا : لعنة الله على الظالمين »(وليس هناك ما يستحقه الظالمون لأنفسهم بعدم الإيمان بالله ، وبالافتراء عليه ، سوى ملاحقتهم بلعنة الله وغضبه)« الذين يصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجاً ، وهم بالآخرة هم كافرون » (وهم يستحقون لعنة الله وغضبه ، لأسباب ثلاثة رئيسية لاتوصل إلا إلى الشرور والإضرار بالآخرين :

السبب الأول : أنهم يصرفون الناس عن اتباع الحق وسلوك سبيله ... يصرفونهم عن ممارسة العدل والاحسان . . يدعونهم إلى مزاولة الفساد والعبث فى صوره المختلفة :

السبب الثانى : أنهم لا يريدون استقامة بين الناس . . يريدون الانحراف بينهم .. يريدون الخصومة والشحناء .. يريدون الاعتداء على الضعيف ، والاعتداد بالقوة المادية وحدها .

السبب الثالث : أنهم كما يكفرون بالله ، يكفرون باليوم الآخر . . يكفرون بالبعث . . لا يؤمنون إلا بالدنيا وحدها ، ولايرون جزاء على عمل

إلا جزاءها المادى وحده . وهذه الأسباب الثلاثة تكون الصفات لمن هم أشد الناس ظلماً من بين الكافرين . وهؤلاء هم الماديون . فالمادى يصد عن عن سبيل الله ليس بإلحاده فقط ، وإنما بدعوته إلى التحلل من جميع القيم الخلقية والإنسانية . والمادى يزين طريق الانحراف والفساد على أنه الطريق النافع المفيد فى حياة الانسان . والمادى ينكر البعث ، لأنه لا يرى حياة يعيشها الانسان إلا تلك الحياة المادية الدنيوية . فالمادية أشد ضروب الكفر ، وأقساها أثراً على الإنسانية ، وأكثرها اعتداء على القيم الأخلاقية ، وامتهاناً للكرامة البشرية) . « أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض ، وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العذاب ، ما كانوا يستطيعون السمع ، وما كانوا يبصرون »(أى ومع اعتزاز الماديين الملحدين بالقوة المادية وحدها فى حياتهم ، ومع إمعانهم فى الإفساد ، وفى امتهان القيم الأخلاقية وكرامة الانسان : فإنهم فى دنياهم وفى عالمهم الأرضى ، لم يكونوا لحظة ما معجزين الله سبحانه : عن أن ينال منهم ويخسف بهم أرضهم . وعندما ينال منهم ، لا يجدون نصيراً ولا صديقاً يدفع عنهم عقابه ، جلت قدرته : ولكن لحكمة يعلمها ، يؤخر عنهم عقاب الدنيا . وربما تتجلى هذه الحكمة فى استمرار ابتلاء المجتمع البشرى بهذا النوع من المفسدين العابثين. إذ الكفر والإيمان طرفان لا ينتهى الصراع بينهما إلا حين تقوم الساعة : (**ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه** (من القرآن) **حتى تأتيهم الساعة بغتة ، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم . الملك يومئذ لله يحكم بينهم**) (١) فالكفر لا يزول من على هذه الأرض ، والإيمان كذلك لا يرفع من قلوب الناس عليها . فتأخير عقابهم فى الدنيا ليس أمارة على رضاء الله بإلحاد هؤلاء الماديين وعبثهم وفسادهم . بل سيضاعف لهم العذاب فى

---

(١) الحج : ٦٥ – ٦٦

الآخرة لكفرهم أولا ، ثم ثانياً لكونهم أقسى الكافرين وأكثرهم اعتداء على القيم العليا ، والكرامات الإنسانية . وازدواج ظلمهم فى الكفر يعود إلى عدم ممارستهم التفكير الإنسانى لديهم ممارسة سليمة فى معرفة الحق والوصول إلى الحقيقة . إذ أغلقوا منافذ الإدراك فيهم ، وهى السمع والبصر . وبذلك لم يستطيعوا استخدامها كما ينبغى أن يستخدما . ماكانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) ، « أولئك الذين خسروا أنفسهم،وضل عنهم ما كانوا يفترون . لاجرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون »(وهؤلاء يجب أن يعرفوا: أنهم خسروا ولم يصيبوا أى نجاح لأنفسهم فىحياتهم، وما كان لهم منمظاهر الدنيا فى فترة إقامتهم فيها لايحول بينهم و بينعذاب جهنم فى فترة حياتهم الثانية فى الآخرة . ثم ما نصبوه بالباطل معبوداً لهم ، شريكا لله سبحانه، أياً كان نوعه ، لايجدونه معهم يساندهم فظاهر الدنيا قد فارقوها ، وما يعبدون من دون الله قد ضل عنهم وذهب كذلك ، وانصرف لغير رجعة : فهم خاسرون على سبيل الحقيقة) . « إن الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » .

« مثل الفريقين كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع ، هل يستويان مثلا أفلا تذكرون » (وفى مقابل هذا الفريق الكافر هناك الفريق الآخر المؤمن بالله ، والذى كان سلوكه سلوك المستقيم ، وعمله العمل الصالح ، والذى سكن إلى الله واطمأن قلبه إليه . هذا الفريق سيكون جزاؤه فى الآخرة : الخلود فى الجنة ، والمتعة الدائمة فيها . إذ هناك فرق واضح بين هذا الفريق وذاك ، كالفرق بين الأعمى والمبصر . والسميع والأصم . ولايستوى أحدهما مع الآخر فى المنزلة ، كما لايستوى فى الجزاء ، أولها بثانيهما . ويرجى أن يتذكر الإنسان فى حياته هذا الفرق الواضح بين المستويين ، ويختار ذلك الذى يبعده عن الخسران فى الآخرة ، والضلال فى الدنيا) .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

ثم تأخذ السورة الآن – بعد عرض ماينتظر لهؤلاء الماديين المكيين من عقاب على شركهم وإنكارهم وحدة الألوهية – فى الرجوع إلى تاريخ المجتمعات البشرية ، وتذكر بالمصير الذى صار إليه بعض هذه المجتمعات ، إثر ما عارض هذا البعض رسالة الرسول الذى أرسل إليه ، وتحدى دعوته

إلى وحدة الألوهية . وقد أشارت السورة إلى ستة من هذه المجتمعات.وهى مجتمعات : نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وموسى. وفى ذكر هذه المجتمعات استشهدت بتاريخ البشرية على أن عوامل السقوط لأى مجتمع تتركز فى مباشرته الظلم والطغيان والابتعاد عن المستوى الإنسانى والقيم الإنسانية فى سلوك الأفراد وعلاقات بعضهم ببعض . . وأن هذه العوامل إذا ماتجمعت فى الشرك والوثنية ، دفعت بالمجتمع إلى السقوط حتما . وبذلك تعقب السورة بعد الانتهاء من ذكر هذه المجتمعات بقولها : **(ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم ، وحصيد . وما ظلمناهم ، ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيء ، لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب .وكذلك أخذ ربك ، إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد)**(١)

وبعد أن تنتهى السورة من ذكرهذه المجتمعات ، تستأنف من جديد فى آيات ست أخرى ابتداء من الآية الثانية عشرة بعد المائة ، فى ذكر المبادىء التى هى آيات محكمة ، والتى جاءت السورة نفسها لتعلن عنها بعد أن أشارت إليها فى الافتتاح بقول الله تعالى ، « آلر • كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير » •

وتبتدىء هذه المجتمعات بقصة نوح ، وتوضح هذه القصة : الأصل العام الذى تقوم عليه رسالة أى رسول فى أى عهد . وهو الدعوة إلى التوحيد فى الألوهية • كما تحدد وظيفته كرسول — وهو كذلك تحديد مشترك لوظيفة أى رسول — بأنه منذر ومبلغ فقط ، وليس بملزم ولا بمكره

---

(١) سورة هود : ١٠٠ – ١٠٢ .

لأحد على قبول دعوته . . وبأنه لايطلب مالا ، ولازعامة فى قومه ، عن طريق دعوته ، بل أجره فيها على الله وحده . . وبأنه ليس من جنس آخر غير جنس البشر ، أى ليس ملكا ، بل هو من آحاد الناس .. وبأنه لايستطيع أن يعد المؤمنين به : بأن عنده خزائن الله فيعطيهم منها ، أو عنده علم غيبه فيطلعهم عليه ، كما كان يدعى الكهان . وبالإضافة إلى توضيح الأصل العام للرسالة ، وتحديد وظيفة الرسول : تذكر القصة كذلك : الموانع التى يرددها المنكرون لرسالته ، وهى أيضاً موانع مشتركة يذكرها المعارضون فى أى عهد للرسول الذى يرسل إليهم . فتذكر هذه الموانع :

- بأن الرسول بشر مثلهم ، وليس من الملائكة .
- وبأن الذين يتبعونه ليسوا من الأشراف والوجهاء ، بل هم من العامة ، أو هم من الأراذل ، أو الضعفاء فى القوم .
- وبأنه غير متميز عنهم فى قومهم بجاه ، أو بشرف ، أو بقوة .

وهكذا قصة نوح – وهى أقدم قصص الرسل ، بعد آدم – تنطوى على القدر المشترك الذى نراه يتكرر فى رسالات الرسل .

وهذا القدر المشترك إما خاص بالأصل العام الذى تؤسس عليه الرسالة الإلهية . وهو أصل التوحيد فى الألوهية ، وليس الدعوة إلى وجود الله .

وإما خاص بوظيفة الرسول ، وهى وظيفة دعوة وتبليغ ، وليست وظيفة إكراه وإلزام على القبول ، أو وظيفة زعامة ، أو تحصيل منفعة مالية ، أو وظيفة تميزه فتجعله من عالم آخر غير عالم الإنسان .

أو خاص بأسباب الرفض للرسالة ، التى اعتاد المعارضون أن يذكروها وهى أنه واحد منهم وليس متميزاً عليهم ، أى فرد بشرى عادى .. وأن

الذين يتبعونه هم العامة ، وليسوا من الأشراف والوجهاء فى القوم .

« ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه : إنى لكم نذير مبين » (فأعلن نوح من أول الأمر : الهدف من رسالته إلى قومه . وهو أنه منذر وموضح لهم فحسب. وليس مكرهاً ولا ملزماً لأحد منهم) : « أن لا تعبدوا إلا الله » (كما قدم إليهم : الأصل العام الذى تقوم عليه رسالته . وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده ، وطرح الشرك والوثنية . وأهمية الإيمان بوحدة الألوهية ، كما أنه يحول دون انقسام الناس إلى طوائف تختلف فى عبادتها .. يحفظ على الإنسان كرامته فى أنه يقصر عبادته على الكامل كمالا مطلقاً فى الوجود ، وهو الله سبحانه وتعالى . إذ الشرك يدفع إلى عبادة عديد من غير الله ، معه . والوثنية تدفع إلى أن يكون الشركاء فى العبادة مع الله : من المحسوس المشاهد : إنساناً ، أو صنما ، أو موجوداً من موجودات الطبيعة ، أو مصنوعاً للانسان نفسه) « إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم » (أى إنى أترقب لكم عذاباً فى يوم أليم إذا ما بقيتم على شرككم ووثنيتكم ، ولم تؤمنوا بالله وحده . وما يخاف نوح على قومه هنا من عذاب يوم أليم : هو ماينذرهم به ، وماتقف رسالته عنده ، بعد أن يوضح دعوته . وقد يكون هذا العذاب فى الدنيا ، كما وقع فعلا لقومه هنا ، بالإضافة إلى ما يقع فى الآخرة على أية حال) « فقال الملأ الذين كفروا من قومه » (والملأ هم الأشراف والوجهاء ، وأصحاب النفوذ فى أى مجتمع) : « ما نراك إلا بشراً مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ، بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين » (وكان جواب هؤلاء الوجهاء فى قوم نوح ، رداً على دعوته إياهم إلى التوحيد فى الألوهية ، وطرح الشرك والوثنية: أنهم يكذبونه فيما يدعوهم إليه . ولذا لا يؤمنون به . والعوامل التى يقوم عليها تكذيبهم له ثلاثة :

أولا : أنه بشر ، وليس ملكا ، حتى يكون ذلك أمارة على أنه مرسل من عند الله إليهم . إذ كونه بشراً يبعد صلته بالله .

وثانياً : أن الذين آمنوا برسالته هم من العامة .. هم من الأراذل الذين من شأنهم ألا يكون لهم رأى . ولذا ليس لهم وزن يذكر إن هم قدروا رسالته ، أو آمنوا بها : وإيمانهم بها ليس دليلا إذن على رجحانها ، وسلامتها للمجتمع . فهم ليسوا أصحاب مصلحة فيه ، ولا أصحاب رأى يؤخذ به فى شئونه .

وثالثاً : أن نوحاً نفسه من آحاد الناس فى المجتمع . ولذا لا يفضلهم بزعامة ، أو بثراء ، أو بقوة مادية إذا قام وتصدى لنقد الوضع فى مجتمعهم وطالب بتغييره من الأساس الذى قام عليه . وهو أساس الشرك) .

« قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ،وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ، إن أجرى إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقوا ربهم ، ولكنى أراكم قوماً تجهلون » (وكان جواب نوح رداً على اعتراض الوجهاء فى قومه على دعوته : أنه يراهم مجموعة من الماديين الذين سد عليهم الاتجاه المادى فى تفكيرهم مسلك العقل الصحيح والتفكير السليم .

فأولا : أنه لا يكرههم على قبول مايدعوهم إليه إن كان هو على بينة منه وآثره الله به رحمة وفضلا منه ، وهم على عمى وجهل به .

وثانياً : أنه لا ينتظر ولا يترقب منهم أن يكون هو ، عند ما يقبلون دعوته : ذا زعامة ورياسة فيهم ، أو أن يؤجروه مالا منهم عندئذ .

وثالثاً : أنه ليس من السلوك الإنسانى الكريم أن يطرد نفراً من الناس

فى المجتمع سارعوا إلى الإيمان ، ويخرجهم من دائرة الاتصال به ، لأنهم فقط فى المجتمع : ضعفاء ، وليسوا من أصحاب الوجاهة والثراء بين أفراده ، والأجدر عندئذ تركهم وشأنهم إلى الله جلت قدرته يوم اللقاء به لتقديرهم وجزائهم . وإذن ليس هناك داع إلى تكذيبهم إياه ، وتحديه فى رسالته . إذ لو تبصروا الأمر لكان يجب أن ينظروا موضوعياً فيما جاءت به الرسالة وليس فى الوضع البشرى له ، أو فى الوضع الاجتماعى إلى أتباعه . إذ هذا وذاك ليست له صلة بالقيمة الحقيقية لدعوته إياهم وأثر هذه الدعوة فى تحولهم إلى مجتمع إنسانى صاحب مستوى فاضل فى الإنسانية). « وياقوم ! : من ينصرنى من الله إن طردتهم ؟ أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول : إنى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم : لن يؤتيهم الله خيراً ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، إنى إذاً لمن الظالمين» (ثم هناك شىء آخر بعد ذلك أنتم تجهلونه ، كما تجهلون موضوع الرسالة نفسه . وهو أنى إذا طردت هؤلاء الضعفاء وتنكرت لهم بسبب ضعفهم وعدم وجاهتهم فى المجتمع ، فسيصيبنى الأذى والضرر من الله سبحانه . وعندما يلحقنى أذاه وضرره لا يكون هناك ناصر لى إطلاقاً من غيره ، يحول دون وقوع هذا الإيذاء والضرر على . إذ أنا عندئذ أكون ظالماً لنفسى ولهم على السواء ، وهو سبحانه إذا شاء أمراً لا يرد مشيئته أحد سواه . إنى لم أخدعكم فيما دعوتكم إليه من الإيمان بالله وحده . وكذلك لا أخدعكم فى أن أعدكم بأنى عندى خزائن الله التى لا تنفد .. أو إنى أعلم الغيب وشئون المستقبل للناس .. أو فى أن أدعى : أنى ملك ولست من آحاد البشر .. أو فى أن أضمن لكم أن هؤلاء الضعفاء بينكم الذين آمنوا بى ، وتزدرى أعينكم وتسخر منهم نفوسكم : لا يكون لهم شأن عند الله أى شأن ، وألا يؤتيهم خيراً من عنده فى حياتهم ويجعلهم خلفاء لكم فى هذا المجتمع . إننى إذا وعدت ، أو

ادعيت واحداً من هذا كله أكون من الذين ظلموا أنفسهم بوعد ما لا يملكون تحقيقه أو بادعاء ما يستحيل وقوعه . وإن الدعوة إذا تجردت عن عوامل الإغراء والخداع ، أو بعدت عن مجال الاحتراف ، أو الإكراه والإلزام : كانت خالصة للحق والحقيقة . وكان صاحبها يعيش للحق وحده . وما يحيط بدعوة نوح من تجرد فى موضوعها ، وبعد عن الخداع فيها ، والاحتراف بها ، والإكراه عليها : هو ما يحيط بكل رسالة إلهية . وإطار الدعـــوة للمبادىء ولتغيير الوضع الاجتماعى إذا قامت على : التجرد فى الموضوع . . والبعد عن الخداع والإغراء بأية وسيلة من وسائل الإغراء فى الحمل النفسى عليها .. والبعد عن الإكراه والإلزام فى قبولها : لا يضمن للدعوة خلوداً فقط . بل يجعلها مساوقة تماماً للكرامة البشرية . وما يتميز به الإنسان بين المخلوقات التى تنموا وتتحرك على هذه الأرض من الحرية والمشيئة الفردية . ومع ذلك : قد يأتى عهد على الإنسان يطغى فيه بالمادية ، فينكر على رسالة الدين : أنها تصور الحق والحقيقة فيما تدعو إليه من مبادىء . لأنه يرى الخداع بالوعود هو الطريق لما يدعو إليه مما يساوق طغيانه .. ويرى الإكراه والإلزام السبيل للايمان بما يكره عليه . . ويرى التعذيب ، والتجويع ، الوسيلة إلى التغيير — أو غسل المخ — كما يرى فى الإرهاب المسلك الأوفى والدائم لبقاء المجتمع على الوضع المكره عليه). «قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال : إنما يأتيكم به الله إن شاء ، وما أنتم بمعجزين . ولاينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم ، إن كان الله يريد أن يغويكم ، هو ربكم وإليه ترجعون» (أما تقدير هؤلاء الوجهاء فى قوم نوح لحجته التى واجه بها العوامل الثلاثة التى أسسوا عليها رفضهم للايمان به وتكذيبه : فقد رأوا فيها : إنها لجاج فى الجدل والخصومة الفكرية . ولذا تحدوه بأن يحقق ماوعدهم بعذاب الله إياهم ، إن هم بقوا على

تكذيبهم ومعارضتهم . وقد جاء هذا الوعد في قول الله تعالى فيما سبق : (.. إنى لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) . وفى رد نوح على هذا التحدى ذكر : أن الله هو الذى سيأتى بعذابهم عندما يشاء . ولكن ساعتئذ ليسوا هم ولا غيرهم فى الوجود يستطيع أن يقاوم إرادة الله ، فضلا عن أن يعجزه ويحول تماماً دون تحقيق مايريد أن يتحقق فى هذا العالم . أى أنه كرسول لا يملك إلا الدعوة ، وتبليغ ما كلف بتبليغه للناس من وحى . أما شأن الجزاء بعد ذلك فهو لله وحده ، فى الدنيا والآخرة معاً ، أو فى الآخرة وحدها . وهو أمر فى وقوعه لا يرد بحال ، عندما يشاؤه الله ، ثم عاد فأكد مشيئة الله ، وأنها وحدها هى العامل الفاصل فى الحياة الإنسانية — وكل مافى الوجود المخلوق له — فذكر أنه عندما تتعلق مشيئة الله بإبقاء هؤلاء القوم على الحيرة والضلال والغواية ، فإنه لا تنفع بحال نصيحته لهم بالاستقامة ، ولا دعوته إياهم إلى الإيمان بالله وحده . فهو سبحانه وحده منه الخلق وعنه نشأ ووجد . . ثم إليه وحده كذلك : يعود وينتهى المصير) . « أم يقولون : افتراه ، قل : إن افتريته فعلى إجرامى ، وأنا برىء مما تجرمون » (ثم نصح نوح من ربه : بألا يسترسل فى الرد على مفترياتهم بعد ذلك ، إن هم استأنفوا الجدال والخصومة معه . فإن واجهوه بأن دعوته إلى التوحيد فى الألوهية بدلا من الشرك الذى هم عليه فى الاعتقاد أمر مختلق على الله ، ومن صنع نفسه هو وحده ، يجب أن يعلن لهم فقط : تحمله وزر هذا الاختلاق ، إن كان ثمة اختلاق فى الأمر ، كجريمة ارتكبها وفى الوقت نفسه يؤكد لهم براءته مما هم فيه : وأنه لا يعود بحال إلى مشاركتهم فى جريمتهم التى يباشرونها . وهى جريمة السقوط فى الوثنية المادية ، والشرك بالله) .

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

وفى الوقت الذى نصح فيه نوح من ربه بعدم الاستمرار فى الجدل مع الملأ والوجهاء فى قومه ، كشف له عن السبب فى ذلك . وهو أن هؤلاء لن يؤمنوا برسالته ، وأن الإيمان بها سوف لا يتجاوز العدد الذى آمن فعلا بها ، وهو من الضعفاء فى المجتمع . ولذا لا ينبغى أن يتسرب إلى نفسه يأس فى سبيل دعوته : « وأوحى إلى نوح : أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون» (وإخبار الله لنوح بعدم إيمان أحد من الوجهاء فى قومه برسالته يقوم على أساس : أنه طالما لم ينظر هؤلاء فى موضوع الدعوة التى جاء بها فيؤمنوا أو يرفضوا الإيمان بها بعد النظرة الموضوعية ، وإنما كانت نظرتهم متجهة إلى وضعه هو بينهم وإلى وضع أتباعه والمؤمنين به فى مجتمعهم : فلا يؤمل فيهم أن يكونوا موضوعيين ، يفكرون بمنطق إنسانى سليم . وإذا وقف الداعى على هذا السبب ، فلاينتظر لحظة واحدة بعد ذلك: أن يؤمن أحد منهم ، ثم فى الوقت نفسه لا ينزعج فضلا عن أن ييأس من نجاحه فى الدعوة ولو بالعدد المحدود الذى آمن به . إذ قد يخلق من هذا العدد أجيال يكون لها شأنها مع الإيمان بالله وحده فى تاريخ البشرية الصاعد . وفعلا نجد فى ختام القصة لنوح فى هذه السورة ، مايشير إلى دعاء الله بالبركة على الأجيال التى تخرج من المؤمنين به : **(قيل يا نوح ! : اهبط بسلام منا ، وبركات عليك ، وعلى أمم ممن معك)**(١) . «واصنع الفلك بأعيننا ، ووحينا» (ولأنك الآن وقفت على شأن الدعوة مع هؤلاء من قومك فاتجه الآن إلى صنع الفلك التى تنجو بها ومن آمن بك ، تحت رعايتنا وبتوجيهنا) «ولاتخاطبنى

---

(١) هود : ٤٨ .

فى الذين ظلموا ، إنهم مغرقون » (أما هؤلاء الملأ الذين كفروا برسالتك ولا أمل فى إيمانهم بها ، فلا تخاطبنى ولا تدعونى فى شأنهم . إذ قد قضى الأمر فى عقابهم بالغرق فى حياتهم الدنيوية ، بسبب ما باشروه من ظلم لأنفسهم بإصرارهم على البقاء على الشرك والوثنية) .

وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾

« ويصنع الفلك ، وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه » (أى وأخذ نوح سفينته التى أمره الله بصنعها تحت رعايته وتوجيهه ، وهى التى سينجوا بها ومن آمن به . وفى أثناء قيامه بالعمل فيها كانت تمر عليه جماعات من وجهاء قومه : جماعة إثر أخرى ، وتعلن كل جماعة سخريتها من العمل الذى يباشره فيها) «قال : إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم ، كما تسخرون» (وكان هو بدوره يسخر من هذه الجماعات ، رداً على سخريتهم منه . ولكن لسبب يختلف عن السبب الذى من أجله يسخرون منه ، كان يسخر منهم لنقص فى مستوى إنسانيتهم ، لأنهم لم يستخدموا المنطق السليم فى موقفهم من رسالته . وكانوا هم يسخرون منه ، لأنه يباشر عملا يدوياً ، لا يباشره الوجهاء فى القوم وأصحاب السيادة والرياسة بينهم) . « فسوف تعلمون : من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم» (وبجانب سخريته منهم أعلنهم : أن عليهم فقط أن ينتظروا ليروا نتيجة عمله وعملهم ، مما تنبىء عن القيمة النوعية لعمل كل طرف منهما . فسيرون : أنهم سيلحقهم فى دنياهم عذاب يذهب بكرامتهم ووجاهتهم ، ويخزيهم فى قومهم ، كما سيحل بهم فى آخرتهم عذاب أبدى ، لا يفارقهم طوال حياتهم الثانية) .

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

وجاء عذاب الدنيا بإغراقهم فى فيضان عارم ، تسبب عن أمطار غزيرة هطلت على الجبال فى شمال العراق ، وتركيا ، وأخذت طريقها إلى الوديان والنهريات والقنوات متجهة من الشمال إلى الجنوب . ولا يتصور أثر الفيضان فى إهلاك الناس ، وإسقاط منازلهم ، وإتلاف محصولاتهم الزراعية ، والعمل

على إنفاق مواشيهم ، إلا من يعيش فى بلاد جبلية ، تتخلل جبالها : الوديان ، ومجارى المياه التى تنشأ بحكم دفع مياه الأمطار عند انحدارها وسقوطها(١) : « حتى إذا جاء أمرنا ، وفار التنور ، قلنا : احمل فيها من كل : زوجين اثنين ، وأهلك إلا من سبق عليه القول ، ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل » (أى واستمر وضع المعارضين لنوح على موقفهم إلى أن جاء وعد الله بعذابهم . وكانت أمارة وقوعه أن فار التنور ، أى تشقق وجه الأرض ، من قوة الأمطار فى إحداث الفجوات على سطحها . وعندئذ أمر نوح من ربه بأن يصحب معه فى السفينة ثلاثة أصناف من خلق الله : أن يصحب المؤمنين الذين آمنوا به ، وهم قلة .. وأن يصحب معه كذلك : أهله ، عدا من حرم من رحمة الله منهم ، وسبق عليه قضاء الله بذلك . وهو الذى بقى على كفره منهم ، وهو ابنه . كما أمر بأن يأخذ من كل نوع مما هو موجود فى بيئته الحيوانية والزراعية : ذكراً ، وأنثى . لأنه لا يستطيع نقل جميع ما فى هذه البيئة . أى أنه أمر بأن ينقل معه ما يكون مجتمعاً بشرياً ، مع احتياجاته فى المعيشة ، إلى

---

(١) وفيضان نهر الهندوس فى البنجاب فى باكستان فى أغسطس سنة ١٩٧٣ ، إثر سقوط الأمطار ، وذوبان الجليد على قمم جبال كشمير فى شمال باكستان : مثل واضح لتشريد عشرات الآلاف من السكان ، وهلاك المئات منهم ، وإتلاف المحاصيل الزراعية ، وإنفاق المواشى ، بما يقدر بمئات الملايين من الجنيهات فى الاقتصاد القومى الباكستانى واستخدمت القوارب فى الإنقاذ .

ومثل كارثة فيضان المياه فى الإهلاك والإفناء : كارثة الجفاف وعدم سقوط مياه الأمطار مدة طويلة ، وكذلك كارثة الزلزال المدمر الذى يحول المساكن إلى أنقاض ، ويجعل عالى الأرض سافلها .

وهذه السنة — سنة ١٩٧٣ — وقعت فيها هذه الكوارث الطبيعية المهلكة الثلاث : كارثة الفيضان فى باكستان فى أغسطس .. وكارثة الزلزال فى المكسيك فى أغسطس أيضاً .. وكارثة الجفاف فى غرب أفريقيا : فى السنغال ، وموريتانيا ، وساحل العاج ، والنيجر ، وتشاد لم تنزل الأمطار فيها طوال المدة السنوية التى اعتاد أن ينزل فيها . وبذلك نفقت المواشى ، وهلكت المحاصيل ، واشتد القحط والجوع بين أهالى هذه البلاد .

موطن آخر يتناسل ويعيش فيه من جديد . إذ أن الطوفان أو الفيضان سوف لايبقى على شيء من حرث ونسل فى بيئة قوم نوح ، ومكان إقامتهم . وبذلك يقوم مجتمع جديد فى أول الأمر ، يختلف تماماً عن المجتمع السابق الذى أخذه الله بالطوفان جزاء له على معارضته رسالة نوح . وهذا المجتمع الجديد ، وإن كان الآن من المؤمنين على عهد نوح ، سيتحول فى أجياله القادمة على عهود رسل أخرى بعده : بعض الجماعات التى تكفر ولاتؤمن بالله وحده ، وتشرك معه غيره . وتشير إلى ذلك الآية التى ختمت بها القصة هنا فى قول الله تعالى : (قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) .. فالأمم التى سيمتعها الله ، ثم يلحق بها عذابه الأليم : هى بعض الجماعات التى ستتحول من نسل هذا المجتمع الجديد فيما بعد ، إلى المادية ووثنية الشرك . وهذا التحول ظاهرة اجتماعية ضرورية لأن الله قضى باختلاف الناس فى الكفر والإيمان ، إلى أن تقوم الساعة . وتقول السورة نفسها فى الآية الثامنة عشرة والتاسعة عشرة بعد المائة : **(ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين (فى الإيمان والكفر) . إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)(١) .**

« وقال : اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيم » (واتجه نوح إلى من صحبهم معه وناداهم بالركوب فى السفينة ، تحت رعاية الله ، سواء فى سيرها وحركتها على الماء ، أو فى وقوفها وثباتها فى اليم . فالله من شأنه أن يرحم المؤمنين ، ويغفر لهم ما مضى منهم من ذنوب وأخطاء على عهد الشرك والوثنية) . «وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه وكان فى معزل : يابنى اركب معنا ، ولاتكن مع الكافرين . قال : سآوى

---

(١) هود : ١١٨ — ١١٩ .

إلى جبل يعصمني من الماء ، قال : لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين » (وسارت السفينة بهم فى رعاية الله وسط أمواج عالية عاتية كالجبال فى ضخامتها وارتفاعها ، مما يشير إلى وضع الفيضان الخطير . وفى بداية تحركها هزت عاطفة الأبوة نوحاً نحو ابنه — وهو فى عزلة عن الناس — ، فطلب إليه أن يتنحى عن الكفر ، ويركب مع من ركب فى السفينة ، حتى ينجو بنفسه . ولكنه رفض وأصر على البقاء على كفره وأوضح له : أنه رغم كفره سينجو بفعل الطبيعة — دون حاجة لله — إذ سيعتصم ببعض المرتفعات الجبلية التى يمكن أن يقيم عليها ، فلايجرفه الفيضان آنذاك . وبذلك تكون الطبيعة هى التى حمته من الغرق والهلاك . وهذا منطق الماديين الطبيعيين الذين لا يرون فى الوجود إلا قوانين الطبيعة وأسبابها ومسبباتها ، ولايرون فى الأحداث إلا أنها ظواهر ناشئة عن عوامل الطبيعة . ويخرجون الله وإرادته بذلك من بين الأحداث وأسبابها . والله إن وجد فى نظر غيرهم ، فليست له فاعلية فى تفكيرهم ومنطقهم . وعندما كشف له عن منطق الطبيعيين هذا ، رد عليه نوح بقوله : بأن الطبيعة لاتفعل. فهى هنا لا تقى . ولكن الذى يفعل وحده هو الله سبحانه . ورحمته هى التى تنجى من الهلاك من مثل هذا الفيضان العارم الذى لا يبقى ولا يذر شيئاً على الأرض التى يجتاحها . « قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم » فالكوارث الطبيعية كالفيضان ، والجفاف ، والزلازل وإن كانت لها أسبابها ، فالله هو الذى يربط بين الأسباب والمسببات ، وإرادته هى التى ترتب النتائج على مقدماتها . ثم بجانب هذا الترابط يوجد اقتران وقوع هذه الكوارث بوقت معين ، وبيئة معينة ، وبمجتمع معين . فهذا الاقتران يمثل إرادة الله ، كما يمثلها التفاعل بين السبب والمسبب .

وقد كانت هذه الكوارث الطبيعية تمثل في جملتها عذاب الله للمجتمعات المادية التي أنزل بها عقابه في الدنيا ،فالغرق بالفيضان كان لقوم نوح ، وبمياه البحر كان لفرعون وملئه . والزلزال أو الصيحة كان لقوم صالح،وقوم لوط وقوم شعيب . والجفاف كان لقوم عاد،وللمكيين العرب في مكة . ثم انقطعت المحاورة بين نوح وولده . فحالت بينهما الأمواج . ثم كان بعد ذلك من المغرقين) . «وقيل ياأرض ابلعي ماءك ،وياسماء أقلعي،وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل : بعداً للقوم الظالمين » (وانتهى أمر السير بالسفينة في مياه الطوفان والفيضان ، إلى أن وصلت بالراكبين فيها إلى شاطىء الأمان على جبل الجودى ، في موقع يجمع بين الحدود العراقية الشمالية والتركية . إذ شاءت إرادة الله أن تمسك السماء في هذا الوقت عن المطر ، وأن تبتلع الأرض ما فوقها من ماء وينتقل إلى جوفها . وبذلك وجدت السفينة نفسها على أرض يابسة مرتفعة وهي أرض الجودى ، وأنقذ ركابها عندئذ من الغرق ، بينما أغرق الآخرون ممن ظلموا أنفسهم بالبقاء على الكفر من غير أسف عليهم من أحد . «وقيل بعداً للقوم الظالمين ») . « ونادى نوح ربه ، فقال : رب إن ابني من أهلي ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين . قال : يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إني أعظك ، أن تكون من الجاهلين » (وشاءت عاطفة الأبوة أن تتحرك في خاطر نوح مرة أخرى ، بعد أن غرق ابنه في الطوفان فاتجه إلى الله ، كي يغفر له،مع علمه بجزاء الله له في الآخرة ضمن من كفروا به ، ومع علمه كذلك بأن الله إذا قضى أمراً كان ووقع ، فهو أحكم الحاكمين وقد وعد الله بجزائهم في الآخرة في قوله ، في هذه السورة : « ويحل عليه عذاب مقيم » .. وهو عذاب الآخرة . وعاطفة القربى لم تجل في خاطر نوح فقط إنما جالت في خواطر كثير من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، لأنهم

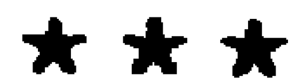
بشر قبل أن يكونوا رسلا . وكونهم رسلا عندما يكلفون بالرسالة، لا يلغى فيهم خصائص الطبيعة البشرية . ولذا عندما اتجه نوح إلى الله فى أن يغفر لابنه خطأ كفره ناجاه بقوله : «إن ابنى من أهلى» ..أى من قرابتى ولحمتى فى الدم. ولكن كان رد الله على نوح . أن أنكر الصلة بين الاثنين على هذا النحو : « قال : يا نوح إنه ليس من أهلك » . . أى أنكر أن تكون علاقة الدم هى العلاقة التى يجب أن يكون لها اعتبارها به ، بوصفه رسولا من عند الله . وإنما علاقة الإيمان بالله وحده هى العلاقة التى تؤسس عليها الصلات والمودة بين الرسول وأتباعه ، كما تقوم عليها الشفاعة وطلب المغفرة من الله لمن أساء منهم . « إنه عمل غير صالح » .. أى ما أتى به ولدك من الكفر بالله عمل غير صالح ، وبالتالى غير منج من عقاب الله .وعندئذ وجه نوحاً إلى أن يبقى فى حدود الرسالة ، فلا يتجاوزها إلى حدود أخرى كحدود القربى وصلات الدم. فهذه لها أهميتها فقط فى نظر الماديين ، وهم الجاهليون أو أصحاب المجتمعات الوثنية ، « فلا تسألن ماليس لك به علم» (من المغفرة لكافر ولو كان ابنا لك) « إنى أعظك أن تكون من الجاهلين » (أى خشية أن تكون من الماديين ، وهم الجاهلون الذين يقيمون الصلات المادية وحدها) . وهنا يوضح الله سبحانه وتعالى قيمة العلاقة الجديدة فى المجتمع ، وهى علاقة المبادىء والقيم العليا ، ويطلب أن تكون هى البديل عن القيم القبلية أو الأسرية فى المجتمعات الجاهلية . وقد جاء تأكيد ذلك فى رسالة الله ، فى قرآنه المجيد ، فى قول الله تعالى . (**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا**)(١) فحبل الله هنا هو هدايته فى كتاب الله . ويطلب من المؤمنين بالقرآن أن يعيروا الأهمية الأولى فى العلاقات بينهم للترابط على أساس المبادىء التى جاء

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

بها الوحى الإلهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس لترابط آخر ، وبالأخص المادى) . قال : «رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين » (وعندما لفت الله سبحانه نظر نوح إلى خطئه كرسول فى استغفار الله لابنه بسبب بقائه على الكفر ، التجأ إليه بالدعاء فى أن يغفر له ما أقدم عليه من خطأ هنا . إذ غلبت عليه العاطفة الإنسانية فعمت عليه وضع رسالته ، وناشده سبحانه فى أنه وحده — لا غيره — يملك الغفران والرحمة ، وأنه سيصبح من الخاسرين ، إن أمسك الله عليه رحمته، بسبب هذا الخطأ) . « قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » (وقد استجاب الله لدعاء نوح فغفر له . وأحاطه برعايته عند نزوله من السفينة ، وأمنه على حياته ، وضمن له ، النمو والازدهار فيها ، كما بشره بأمم ومجموعات أخرى تزدهر وتنمو من البشر ، تنحدر ممن معه من المؤمنين القلة . وبهذا تقر عينه بنفسه وبمن معه على السواء . ولكن فى الوقت نفسه أخبره بأنه سينحدر أيضاً من المؤمنين معه أمم ، ومجموعات أخرى من البشر تطلب الدنيا وحدها تحت تأثير المادية ، وتقف بتفكيرها ، وبنظرتها ، وبسعيها فى حياتها عند حد الاستمتاع بها فقط . وسيمتعها الله بنعيمها كما طلبت ، أى سيعطيها المال ، والجاه ، والقوة ، على أن يلحقها فى الآخرة عذابه الشديد ، لأنها لم تحسن صنعاً بما أعطيت ، بل طغت بنعمة الله ، واتخذت منها سبيلا للظلم والفساد والعبث) . « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين »(ثم يتجه القرآن الآن ، بعد رواية قصة نوح من أعماق التاريخ البشرى البعيد ، فهى من أنباء الغيب لذلك الماضى السحيق : إلى الرسول محمد عليه السلام ، ليثبت فؤاده فى دعوته، وفى

موقف الزعماء المكيين منها . إذ وضع أمامه الآن ، العاقبة النهائية لمجتمع مادى لم يأخذ برسالة رسول أرسل إليه. فكانت نهاية المجتمع الفناء ، بعد تمسكه بأسباب القوة ، واشتداد موقفه العدائى من صاحب الرسالة .. وكان النجاح للرسالة ، وللمؤمنين بها ، وللرسول الذى دعا إليها ، بعد جهد ومثابرة وتحمل ، وليس هناك إلا شىء واحد ، لو وجد لتأكد نجاح الرسالة ، ونجاح من دعا إليها . وهذا الشىء هو الصبر .. هو التحمل فى سبيل الدعوة ، مهما كانت صور العقبات فى طريقها ، ومهما كانت السخرية من المعارضين لها ، ومهما ألبوا وتآمروا عليها . والصبر ليس استكانة ، ولا انتظاراً سلبيا لما يأتى به الغد القريب أو البعيد . وإنما هو الوقوف فى ثبات فى جانب الرسالة ، والتحرك فى تؤدة لدفعها إلى الأمام وعدم الخضوع ليأس أو لإرهاب وتخويف من عدو أو حاقد . وعاقبة الصابرين ، وهم الذين يتقون ويقاومون الأوضاع النفسية التى توحى بها أية حرب نفسية من أى لون ، يثيرها عدو الدعوة والإيمان هى أن يكون الأمر لهم وحدهم . وأهمية الصبر فى الكفاح وفى الدعوة إلى الحق ، لا تقل عن موضوع الحق نفسه فى تجرده وقيمته العليا) .



وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾

ثم تنتقل السورة إلى ذكر قصة هود مع عاد إرم ذات العماد . وهى عاد الأولى . وكانت تسكن الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة العربية ، الممتد من الخليج العربى إلى البحر الأحمر غرباً . ويشمل الآن : عمان ، وحضرموت ، واليمن .

وبين هود ونوح أربعة أجيال . فهو هود بن عوص ، بن أرام ، بن سام ، بن نوح ، وعاد تعتبر خلفاء لقوم نوح : ويشير إلى ذلك قول الله تعالى فى سورة الأعراف ، على لسان هود : **(أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ واذكروا إذ جعلكم**

خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله ، لعلكم تفلحون) (١) .

ورسالة هود مع عاد لا تختلف فى جوهرها عن رسالةأى رسول أرسل إلى شعب غلبت عليه المادية فانحرف عن التوحيد إلى الشرك ، وأنكر الإيمان باليوم الآخر ، تحت مغريات الدنيا وما لها من خداع .

ودعوته هى الدعوة إلى وحدة الألوهية وطرح الشرك .

والمعارضون لدعوته هم الزعماء والكبراء فى قومه . وينتهى مصيرهم إلى التقويض والفناء ، بفعل الكوارث الطبيعية ، وهى هنا الريح الباردة العاتية التى استمرت سبع ليال وثمانية أيام حسوماً : (**وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية. سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً (أى شؤماً) ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ؟**)(٢)

وبالإضافة إلى دعوة التوحيد ، فإن هوداً دعاهم كذلك إلى طرح الظلم ، وعدم استغلال الضعفاء لمصلحة الزعماء منهم . ولكنهم استكبروا فى الأرض بغير الحق : (**فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا : من أشد منا قوة ! أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ؟ وكانوا بآياتنا يجحدون : فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون**)(٣)

---

(١) الأعراف : ٦٩ .

(٢) الحاقة : ٦ – ٨ .

(٣) فصلت : ١٥ – ١٦ .

وقد سبقت هذه الريح الباردة الشديدة التى استمرت عدة أيام حتى قضت عليهم : ثلاث سنوات عجاف لا ينزل عليهم مطر فيها ، حتى هلك زرعهم ونفقت مواشيهم ، ابتلاء من الله ، لعلهم يرجعون عن عتوهم وكبريائهم . ولشدة رغبتهم فى المطر طوال هذه السنوات ظنوا عندما قامت الريح التى أتت عليهم : أنها ريح تحمل الأمطار . ولكنها كانت ريحاً عقيما ، كما كانت ريح العذاب والخزى لهم : (**وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم**) (١) . . (**فلما رأوه عارضاً** (أى رأوا عذاب اليوم العظيم) **مستقبل أوديتهم قالوا : هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به** (أى هو عذاب) **ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شىء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين**) (٢) .

« وإلى عاد أخاهم هودا » (أى أرسلنا إلى عاد رسولا من بينهم ، وهو هود عليه السلام) « قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » (أى دعاهم إلى وحدة الألوهية ، وعبادة الله وحده وطرح ما عداه) « إن أنتم إلا مفترون » (أى فما أنتم بالشرك وجعلكم لله سبحانه شركاء ، وعبادتكم إياها إلا مختلقون على الواقع . إذ ليس هناك كامل فى الوجود يعبد إلا هو جل جلاله : (**ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**) (٣) « ياقوم لا أسألكم عليه أجراً ، إن أجرى إلا على الذى فطرنى » (وبدعوتى إياكم إلى عبادة الله وحده ، وإلى طرح الوثنية المادية ، لا أستهدف زعامة بينكم ،

---

(١) الذاريات : ٤١ — ٤٢ .
(٢) الأحقاف : ٢٤ — ٢٥ .
(٣) يوسف : ٤٠

ولا جاهاً فيكم ، ولا مالا منكم . فأجرى الذى أتوخاه ويصيبنى هو من الله وحده الذى خلقنى)«أفلاتعقلون ؟» (فهل تراجعون أنفسكم وتعيدون تفكيرهم فيما أنتم فيه . فدعوتى إياكم إلى التوحيد فى الألوهية هى دعوة لكرامتكم ، ولمصلحتكم معاً ، وليست قناعاً لمصلحة خاصة بى) .«وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولاتتولوا مجرمين» (ومن أجل أنها دعوة لكرامتكم ولمصلحتكم : أناشدكم الآن أن تطلبوا الغفران من الله سبحانه على ما مضى منكم ،وتعودوا إليه مؤمنين به وحده . تاركين أصنامكم التى اتخذتموها شركاء لله فى العبادة ،وسيبدل الله حالكم التى ابتلاكم بها الآن ،وهى حال الجفاف وهلاك الزرع والضرع واشتدت بكم طيلة ثلاث سنوات عجاف ،ويعيد إليكم مطر السماء .وبنزوله تنمو ثروتكم وتزداد بسبب نموها قوتكم ، وحذار أن تعرضوا عن دعوة التوحيد ، لأنكم إن أعرضتم عنها ووليتم ظهوركم إليها كنتم مجرمين فى حق أنفسكم وفى حق أجيالكم من بعدكم ، وفى حق الإنسانية كلها ، لأن الطغيان بالقوة المادية والترفع عن الإقرار بالحق والصد عن سبيله ، لايوصل إلا إلى التقويض والفناء) « قالوا : ياهود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين » (ولكن رغم مناشدة هود لقومه : أن يعيدوا النظر فى موقفهم من رسالته ويؤمنوا بما دعاهم إليه كان ردهم على ندائه : أنهم باقون عند رفضهم للايمان برسالته ،وباقون أيضاً عند عبادتهم لآلهتهم . وبرروا إصرارهم على ذلك بأنه لم يأتهم بحجة تقنعهم بالتحول إلى ما يدعوهم إليه) « إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » (ورأوا أن به خبلا أصابه من بعض آلهتهم غضباً عليه فدعا بما دعاهم إليه من غير أن يعى لما يقول . ودعوته لطرح عبادة الآلهة هذيان يهذى به فحسب) «وقال : إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه » (ولم يسع هوداً إزاء اتهامهم

له بالخروج عن الوضع الطبيعي فيما يدعو إليه إلاأن يشهد اللهعلىأن ما يدعو إليه يمثل رسالة الله إليه ،وإلاأن يعلنهم جهاراً وفي صراحة بأنه برىء من شركهم ووثنيتهم المادية التي دفعتهم إلى أن يعبدوا آلهة أخرى غير اللهسبحانه) «فكيدوني جميعاً ،ثم لاتنظرون»(ثم تحداهم كحجةعلى رسالته من قبلالله: أن يشتركوا جميعاً فيتدبير الكيد والسوءله .. وألا يرجئوا تنفيذ مايعزمونعليه لحظة واحدة) «إني توكلت على الله ربيوربكم مامن دابة إلاهوآخذ بناصيتها» (وهو واثق تمام الثقة بأنه سوف لايصاب بأذىمنهم. إذ هومفوض أمرهلله في شأن قيامه بالدعوة لرسالته . والله هو رب الناس جميعاً ، والمالك لزمام ما يجرى في وجودهم من أحداث . فله سبحانه شأن مع كل ما يدب على هذه الأرض ويتحرك فوقها) «إن ربي على صراط مستقيم» (وبالإضافة إلى اعتماد هود على الله جل جلاله في شأن دعوته لرسالته فإنه كذلك يؤكد : أن ما يدعوإليه هو الحق ، والصراط المستقيم لسلوك الإنسان في الحياة ومن يسلك الطريق المستقيم يأمن الزلل ، وينجو من مكايد الأشرار . فمكايد الأشرار لاتصيب إلا أولئكم العابثين والطغاة) . «فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربي قوماً غيركم ، ولا تضرونه شيئاً ، إن ربي على كل شيء حفيظ» (ثم يتجه الله إلى هود ليعلمه : أن يبلغ قومه في حال توليهم وإصرارهم على الإعراض عن دعوته ، ثلاثة أمور :

الأمر الأول : أن يسجل عليهم تبليغه لرسالة الله ، كمقدمة لجزائهم في الآخرة : « فقد أبلغتكم ما أرسلتبه » .

والأمر الثاني : أن يعلنهم بنهاية مجتمعهم في الدنيا وبقيام مجتمع جديد يقوم على أنقاضه يؤمن باللهوالبوم الآخر : « ويستخلفربيقوماً غيركم » .

والامر الثالث : انهم بعيبهم وفسادهم وطغيانهم وبمعارضتهم وتحديهم

لرسالة الله لايضرون هذه الرسالة فى ظهورها ، وتمسك أجيال أخرى بهدايتها « ولايضرونه شيئاً » . إذ معارضتهم لاتلبث أن تنهار فور تغيير مجتمع كبرائهم وزعمائهم . فالله جلت قدرته يرعى رسالته بين الناس ، ويحفظ كل أمر فى هدايته من أن يصاب من العابثين بأذى) .

وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

وطالما كلف هود بتبليغ قومه وعد الله باستخلافه قوماً آخرين غيرهم فمعنى ذلك أن فناء قومه إذن أمر منتظر من وقت لآخر : « ولما جاء أمرنا» (أى حل موعد عذابنا وعقابنا لعاد إرم) « نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب غليظ» (وهو عذاب الريح الباردة التى دامت بضع ليال وأيام : **(وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية؟) (١)** ، « وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم ، وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد» (أى أن ما ذكر الآن يصور قصة عاد التى أنكرت رسالة الله ، وتحدت هوداً ومن عاونه فى شرح هذه الرسالة ، وانساق الضعفاء فيها إلى اتباع الكبراء الطغاة بينهم .

---

(١) الحاقة : ٦ — ٨ .

وما لحقهم من عذاب الله فى دنياهم يرجع إذن إلى كفرهم وتحديهم فى الكفر ، والانقياد فى طريق الطغيان). «واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة» (ومن أجل ما مارسوه ضد الرسالة — وهو ينم عن الخروج عن المألوف — لحق بهم غضب الله فى دنياهم ، وينتظرهم عذابه يوم القيامة) « ألا إن عاداً كفروا ربهم ، ألا بعداً لعاد قوم هود» (إنهم لايستحقون إلا طردهم من رحمة الله ورضاه) .

* وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾

وعلى أثر قصة عاد الأولى تنتقل السورة لذكر قصة عاد الثانية . وشعب (عاد الثانية) هو شعب ثمود . وهذا الشعب أولاد عمومة لشعب (عاد إرم) ، ووارث ثقافته وحضارته. إذ ثمود هو ولد عابر ، أخى آرام بن سام بن نوح ومكان إقامة هذا الشعب كان الطرف الشمالى الغربى لشبه الجزيرة العربية ، بين المدينة وسوريا . ويشمل جزءاً حجرياً ينسب إليه أصحاب الحجر وآخر خصباً يبتدىء من شمال المدينة إلى سكة حديد الحجاز ، وممتداً إلى الفرات.

ومع تقدم الحضارة المادية فى ثمود تحولت إلى الإلحاد ، ونهج زعماؤها نهج المستكبرين فى الأرض . وقد كانت ناقة صالح هى الآية التى اختبر الله طاعتهم بها . ولكن كان عقرهم إياها سبباً فى قضاء الله على مجتمعهم عن طريق الزلزال . وقد جاءت سورة الأعراف مجملة تاريخ هذه القصة فى قول

الله تعالى : (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً ، وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم : أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا : إنا بالذى آمنتم به كافرون . فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا : يا صالح ائتنا بما تعدنا ، إن كنت من المرسلين : فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) (١) .

وكانت ناقة صالح هى آية الله لاختبار قومه فى طاعة الرسالة التى جاء بها ، لأن زعماء هؤلاء القوم احتكروا لأنفسهم المراعى العامة والمياه فى الأراضى الخصبة ، والتى كانت تتجمع من مياه الأمطار فى آبارها وحرموا المستضعفين من المشاركة ، سواء فى الرعى أو فى السقى .

وكانت رسالة صالح لهؤلاء المستكبرين والمستضعفين معاً ، أن يشتركوا جميعاً فى نعم الله التى هى عامة ، ولا يحرم قوى فيهم ضعيفاً من بينهم . . أى أن يمارسوا جميعاً العدل ، ويطرح قويهم ظلمه للآخرين . ولكن عطرسة الطغيان تحول دون التنازل عن امتياز ، تمكن منه طاغ بماله وعصبيته ، من أجل مصلحة آخرين يريدون المشاركة معه فى الحياة فقط . وكانت نتيجة هذا الطغيان هى تدمير هذا المجتمع الطاغى بتسليط كوارث الطبيعة عليه .

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض ، واستعمركم فيها فاستغفروه ، ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب » (أى أن صالحاً — وهو واحد من قومه — عندما أرسل إلى

---

(١) الأعراف : ٧٤ — ٧٨ .

ثمود : دعاهم إلى عبادة الله وحده ، وطرح ما عداه من الشركاء فى الألوهية له حسبما يدعون . وأقام دعوته إياهم على اعتبارين :

الاعتبار الأول : أن الله وحده هو الخالق لهم ، فهو وحده أولى بعبادتهم إياه .

والاعتبار الثانى : أنه وحده كذلك هو الذى مكنهم من عمارة الأرض ، فهو أحق بالطاعة له . كما طلب منهم أن يتوجهوا إلى الله بالمغفرة على ما مضى منهم فى اعتقادهم فى آلهتهم المزعومة : أو فى سلوكهم العابث وأن يعودوا إليه مطيعين إياه وحده ، مؤكداً لهم : أنه سبحانه قريب من عباده فى استجابته لدعائهم ، إن هم استغفروا أو تابوا إليه) «قالوا : ياصالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ، أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب » (وكانت إجابة ثمود له — والمقصود الكبراء فيهم — . أنهم يشكون فى صدق دعوته هذه شكاً قوياً وأنها من الله . وأنه واحد من الذين كان يؤمل فيهم بين قومه . . أى أنه كان ينتظر منه أن يكون وفياً لما درج عليه قومه فى الاعتقاد والتقاليد . فدعوته إلى الوحدة فى الألوهية مخالفة صريحة لما كان عليه الآباء والأجداد من قبل . وخروجه فى دعوته إلى النقيض ، وهو هو من كان يؤمل فيه ، يدل على عدم صدق دعوته ومطابقتها للواقع الذى هو مضمون الرسالة الإلهية . وبذلك أنكروا رسالته ، ولم يطيعوه فيما دعا إليه (كذبت ثمود بالنذر ، فقالوا : أبشر منا واحداً نتبعه ؟ إنا إذاً لفى ضلال وسعر ، أؤلقى عليه الذكر من بيننا ، بل هو كذاب أشر) (١)

---

(١) القمر : ٢٣ — ٢٥ .

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

واتجه صالح إليهم ثانية ، إثر إنكارهم لرسالته ، ليؤكد لهم صدقه فى رسالته من الله إليهم ، وصلته فيها به ، وأنها كانت منه سبحانه : رحمة لقوم ثمود أنفسهم ، حتى ينقذهم من خزى الدنيا وعذاب الآخرة معاً ، فقدرة الله لا تغالب ، وجزاؤه بالعقاب لمن يعصيه لا يرد . ولو أن — صالحاً — ادعى على الله أنه رسول من قبله ، وفى واقع الأمر أنه سبحانه لم يختره للرسالة يكون — صالح — عندئذ عاصياً لله بالكذب عليه ، ومستحقاً لعقابه ، ذلك العقاب الذى لا يستطيع موجود ما أن يدفعه عنه . وهذا ما يجعله حتما صادقاً فى رسالته. هذا أمر . وأمر آخر هو : أن إنكار ثمود لرسالته لا تضره ولا تضر الله شيئاً . وإنما تضر ثمود نفسها ، وتزيد فى خسارتها . لأنها بسلوكها العابث ، وباعتقادها الباطل تخسر فى هذه الدنيا . فإذا أنكرت مع ذلك الرسالة الإلهية التى جاءت لإصلاحها تزيد فى خسارتها . لأنها بإنكارها للرسالة أصرت عندئذ على البقاء على العبث والفساد والاعتقاد الباطل ، وهذا الإصرار كما يعجل بفناء مجتمعها ، وقيام مجتمع جديد على أنقاضه . يجعل جزاءها الآخرة للعصاة

منها أمراً لامفر منه .. إذ عذاب الله مرهون بتبليغ رسالته لمن حق عليهم العذاب : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)(١) وقدبلغتهم رسالة الله الآن على يد صالح) . « قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته ، فما تزيدوننى غير تخسير . ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء ، فيأخذكم عذاب قريب» (والآن يضعهم صالح موضع الاختبار العملى فى طاعة الله . فأتى إليهم بناقة ، وطلب إليهم أن يتركوها تأخذ حصتها فى المراعى والمياه • كما يأخذون هم لإبلهم حصصها. فإن هم تركوها تصنع ذلك كان تركهم إياها دليلا على طاعة الله فى تطبيق العدل بين كبرائهم وضعفائهم فى المشاركة فيما هو مباح للجميع • وهو المراعى والمياه . وإنهم ظلوا واقفين عند استبدادهم بالمراعى والمياه لإبلهم وحدها • كان ذلك آية على استمرارهم على الظلم والعصيان لرسالة الله . وحذرهم من استمرارهم على الظلم . وجاء التحذير فى ختام الآية فى قوله تعالى : « ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب . » . ومعنى كون الناقة آية لثمود : أنها اختبار وفتنة لهم • كما صرح قوله تعالى فى سورة القمر : (إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم ؛ كل شرب محتضر)(٢). والناقة إذن لم تكن من نوع خاص . ولا يخرج وضعها عن أن تكون محل الاختبار فى موقفهم العملى من رعاية حقوق الضعفاء الآخرين » . «فعقروها فقال : تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام • ذلك وعد غير مكذوب» (وبدلا من أن يطيع المستكبرون فى ثمود — وهم زعماؤها — أمر الله بالعدل بينهم وبين من عداهم من الضعفاء • فيما هو مباح للجميع • وهو الكلأ والماء • على نحو ما جاء فى نداء صالح لهم بترك ناقته تأخذ حظها مع إبلهم : ذبحوا هذه الناقة وعتوا عن أمر ربهم • وقالوا له : ياصالح ائتنا بما تعدنا من العذاب •

---

(١) الإسراء : ١٥ .

(٢) القمر : ٢٧ – ٢٨ .

إن كنت حقاً من المرسلين الصادقين فى رسالتهم . فأمهلهم مدة قصيرة يحيون فيها ويمارسون عتوهم وعصيانهم • ويستمتعون بطغيانهم وظلمهم للضعفاء • يعقبها عذاب الله صدقاً وحقاً) . « فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه ، برحمة منا ، ومن خزى يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين. كأن لم يغنوا فيها ، ألا ! إن ثمود كفروا ربهم ، ألا بعداً لثمود» (وعندما حل وعد الله بعقاب هؤلاء المستكبرين الكافرين ، بعد المهلة القصيرة التى أعطيت لهم من صالح ، أنجى الله منه صالحاً ومن معه من المؤمنين برسالته بين أهل ثمود . وكان إنجاؤه إياه رحمة منه سبحانه وفضلا . وهو قادر جل جلالة على أن ينجي من عذاب شامل أراده : من يرعاه برحمته . وتمثل هذا العذاب فى كارثة من الكوارث الطبيعية • وهى كارثة الزلزال . وكان من قوته أن أصبح المعذبون جثثاً بعده هامدة • كما أصبحت مساكنهم أثراً بعد عين • كأن لم تكن بالأمس القريب : (**إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر**)(١) . وهذا الأخذ القوى بالزلزال لقوم ثمود لم يكن إلا بسبب كفرهم . ولم يكن مصحوباً بالأسى عليهم . بل لحقهم الطرد من رحمة الله : « ألا ، بعداً لثمود » مع ذلك) .

* * *

---

(١) القمر : ٣١

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)

ومن قصة ثمود في شمال شبه الجزيرة العربية تنتقل السورة إلى قصة لوط .

فى كنعان أو الشام ، فى الأرض المجاورة ، لتضيف إلى أدلة التاريخ السابقة على عقاب الله للمجتمعات البشرية المادية التى أمعن زعماؤها فى معارضة رسلهم . وفى تحدى رسالاتهم : دليلا آخر يرتبط بقوم لوط . عندما أنكروا عليه دعوته التى يدعوهم بها إلى أن يتخلوا عن شذوذهم فى معاشرة الرجال دون النساء . لما يترتب على هذا الشذوذ من أضرار اجتماعية . تنتهى حتما بانقراض الجنس البشرى : **(ولوطاً إذ قال لقومه : إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . أئنكم لتأتون الرجال ، وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر)**(١) .

ولوط — وهو قريب لإبراهيم : ابن أخته ، أو ابن أخيه ، ومن الموالين له والذين آمنوا برسالته : **فآمن له لوط** — أى آمن لوط لإبراهيم — (٢)— خرج من كنعان ينذر قرى السهل الشرقى للبحر الميت ، الذى يسمى أيضاً ببحر لوط . وفى مقدمة هاته القرى ، قريتا : سودوم . . وجومورراه . ولم يكن هو واحداً من القوم الذين دعاهم ، على نحو ما كان صالح ، أو شعيب فى قومه . وما ورد فى سورة الشعراء فى قول الله تعالى . **(كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ؟)**(٣) . من التعبير عن لوط بأنه أخ لمن يدعوهم ، يقصد منه فقط . أنه كان على معرفة تامة بوضعهم الاجتماعى ، كما يعرف الأخ : الوضع الداخلى لأخيه .

وفى سور عديدة — بجانب سورة هود — كسورة الحجر ، وسورة الشعراء ، وسورة العنكبوت ، وسورة الذاريات . جاءت قصة لوط مع قومه

---

(١) العنكبوت : ٢٨ — ٢٩ .

(٢) العنكبوت : ٢٦ .

(٣) الشعراء : ١٦٠ — ١٦١ .

متداخلة مع شأن من شؤون إبراهيم عليه السلام . وهو شأن بشارته بابنه إسحاق ، رغم شيخوخته فى سن المائة ، وكبر سن امرأته : سارة فى سن التسعين تقريباً . فقد أرسل الله بعض ملائكته رسلا للوط ، لإبلاغه عذاب الله لقومه ، ولإنقاذه هو ومن آمن معه من هذا العذاب ، عندما شعر هو بالعجز أمام هؤلاء القوم . ولكن قبل أن تصل هذه الرسل إلى لوط عرجت على إبراهيم عليه السلام أولا ، باعتباره الرسول الأكبر بالنسبة للوط . إذ لوط بالنسبة له منذر فقط . فرسل الله يفضل بعضهم بعضاً فى درجة الرسالة **(تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات)**(١) .

ثم لإخباره بأنه سيصبح ذا أسرة كبيرة • ولها شأنها فى تاريخ البشرية: **(ونبئهم عن ضيف إبراهيم ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ، قال إنا منكم وجلون . قالوا : لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم . قال : أبشرتمونى على أن مسنى الكبر ، فبم تبشرون . . قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال : ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون . قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ . قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين (يعنون قوم لوط) . إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين . إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين)** (٢) .

وقصة لوط فى جميع سور القرآن التى وردت فيها لم تذكر سوى أمرين:

الأمر الأول : إنذاره قومه بالتخلى عن الشذوذ الجنسى .

---

(١) البقرة : ٢٥٣ .

(٢) الحجر : ٥١ — ٦٠ .

والأمر الثانى : إنقاذ الله له – عن طريق الرسل من الملائكة – من العذاب الذى قدر : أن يحل بهؤلاء العابثين فى دنياهم . وهو عذاب الزلزال الذى حول أنقاض منازلهم ، بعد أن تناثرت فى الهواء ثم عادت فسقطت ثانية ، إلى ما يشبه مطر الأحجار التى تدمر كل شىء تقع عليه .

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى »(والرسل هنا بعض الملائكة . والبشرى هى إبلاغ إبراهيم بولد هو : إسحاق) « قالوا : سلاماً ، قال : سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ » (أى بعد أن ألقوا عليه السلام ، ورد إبراهيم عليهم : أحضر لهم عجلا مشوياً على الحجارة المحماة) « فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم ، وأوجس منهم خيفة » (ولكن الملائكة عندما قدم لهم الطعام كانوا حيارى ، لأنهم لايأكلون . ومن أجل ذلك لم يبسطوا أيديهم لتناوله . وهنا استنكر إبراهيم منهم عدم إقدامهم على الطعام وأحس فى نفسه بالخوف منهم). « قالوا : لاتخف ، إنا أرسلنا إلى قوم لوط »

وهنا طمأنته الملائكة وأبلغته بالرسالة الرئيسية التى أرسلوا بها من قبل الله وكانت فى الدرجة الأولى لتأمين لوط على حياته هو ومن معه ، عندما يحل العذاب بقومه) « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء اسحق يعقوب »(ويقال إن امرأة إبراهيم ضحكت عندما سمعت بالبشارة متشككة فيها أو فرحة بها وبشارتها إن تكون أماً لإسحاق ثم جدة بعد ذلك ليعقوب . وقد صار ليعقوب من نسل إسحاق : اثنا عشر ولداً) . « قالت : ياويلتا أألد وأنا عجوز ، وهذا بعلى شيخاً ؟ إن هذا لشىء عجيب »(وكان تعقيبها على هذه البشارة أن أبدت تعجبها فى حالة تلقائية من تحققها .وصرحت بأن أسباب هذا التعجب لديها : تعود إلى كبر السن لها ولزوجها . وليس من المألوف أن ينجب من فى هذه السن ، ذكراً أو أنثى ، وبالأخص المرأة)

« قالوا : أتعجبين من أمر الله؟ ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، إنه حميد مجيد » (ولكن الرسل من الملائكة أوضحت لها ، أنه لامكان للتعجب لدى أى إنسان أمام قدرة الله وإرادته ، وأمام رحمته وبركاته على على أنبيائه ومن يصطفيهم من البشر لرسالته وبالأخص إذا كانوا من بناة البيت العتيق . إذ من صفاته جل جلاله : أنه موضع الحمد والثناء وموضع الشرف والرفعة ، بما يفيضه من نعمه وآلائه ، وهى كثيرة لاتحصى) . « فلما ذهب عن إبراهيم الروع ، وجاءته البشرى ، يجادلنا فى قوم لوط » (أما إبراهيم عليه السلام بعد أن ابتعد عنه الخوف والتهيب من الملائكة الرسل ، إثر عدم تناولهم الطعام الذى قدمه إليهم ، وبعد أن أبلغته زوجته بالبشارة التى حملوها إليها ، وبعد أن أجابوا على ما سألهم من رسالة لهم كما ورد فى سورة الحجر فى قوله تعالى : (قال فما خطبكم أيها المرسلون ؟ قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) (وتقصد الرسل : قوم لوط) (١) .

بعد هذا كله أخذ يسأل الرسل من الملائكة عن أمر العذاب لقوم لوط خشية من أن ينال العذاب لوطاً نفسه ، حسبما يقول الله فى سورة العنكبوت (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية ، إن أهلها كانوا ظالمين . قال (أى إبراهيم) إن فيها لوطاً . قالوا (أى الملائكة) نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله ، إلا امرأته كانت من الغابرين) (٢) . فجدال إبراهيم أو سؤاله للرسل بشأن العذاب لقوم لوط ، ليطمئن فى الدرجة الأولى على لوط الذى كلف بإنذار قومه ، وكذلك على الذين آمنوا معه منهم) . « إن إبراهيم لحليم أواه ، منيب »

---

(١) الحجر : ٥٧ — ٥٨ . (٢) العنكبوت : ٣١ — ٣٢ .

(وتدخل إبراهيم بسؤال الملائكة الرسل إليه عن أمر العذاب لقوم لوط يرجع : إلى ثلاث صفات يتحلى بها إبراهيم نفسه :

الصفة الأولى : أنه صبور وحليم على جرائم المعارضين له .

والثانية : أنه أواه أو كثير العواطف الإنسانية .

والثالثة : أنه يعود لله ويثيب إليه ويدعوه العون والمساعدة وقت الشدة والكوارث .

ومن أجل ذلك سأل الملائكة عل الله يفيض من رحمته) . « يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود » (ولكن المولى جل شأنه طلب إليه على أثر سؤاله أن يتوقف نفساً عن الأمل فى تغيير قضاء الله بالنسبة لعذاب قوم لوط ، مؤكداً له ، أن العذاب واقع لامحالة ، وأن رسله يحملون الأمر به عند لقائهم مع لوط ، فى الوقت الذى يبلغونه فيه أيضاً إنجاء الله له من هذا العذاب ، وكذلك من أذى قومه . وقد جاءت هذه الرسالة التى تعبر عن الأمرين معاً فى آية لاحقة هنا فى سورة هود ، قول الله تعالى : « قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ، فأسر بأهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ، إنه مصيبها ماأصابهم ، إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب ؟ » . وبهذا يطمئن إبراهيم على نجاة لوط والمؤمنين معه ، كما يتحقق العذاب لقوم لوط لإجرامهم ومفاسدهم . « ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم ، وضاق بهم ذرعاً وقال ، هذا يوم عصيب » (وانتقلت الملائكة الآن من إبراهيم بعد أن بشرته بإسحاق إلى لوط لتخبره بوقوع العذاب على قومه وأنه أمر لايرد . ولكن لوطاً استقبلهم استقبال المتضرر بهم ، والذى تضيق بهم نفسه وعبر لسان حاله عن لحظة اللقاء بهم بأنها لحظة قاسية وشديدة فى حياته . لأنه خشي من

عدم التمكن من حمايتهم فى مواجهة قومه لهم أو خشى على نفسه من اضطهاد قومه وتأنيبه على استقباله لهم فى داره ، على نحو ما قالوا له (قالوا أولم ننهك عن العالمين) (١) . « وجاءه قومه يهرعون إليه ، ومن قبل كانوا يعملون السيئات» (وتوقع ماخشيه لوط من قومه على رسل الله له من عدم حمايتهم منهم . فما أن علم قومه بوجود الرسل عنده — ويقال إنهم كانوا فى صورة شبان جميلة — حتى أسرعوا إليه يطلبونهم ، ليفعلوا بهم السوء كعادتهم . إذ أنهم كانوا يمارسون السيئات فيأتون الرجال دون النساء) « قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولاتخزون فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد ؟ . قالوا : لقد علمت مالنا فى بناتك من حق ، وإنك لتعلم مانريد »(وهنا دار حوار بينه وبين قومه ناشدهم فيه أن يعدلوا عن عزمهم فى مباشرة السيئات مع رسل الله وعن مباشرة الرجال دون النساء على الإطلاق ، وأشار إلى بنات القرية — وهن بناته على سبيل الرعاية منه لهن — يمكن الزواج بهن . وفى هذه الحالة يكون أنقى لهم فى العلاقة بين الجنسين ، وأبعد عن الرجس والفحش والقذارة والدناءة فى السلوك . وناشدهم اتقاء الله وتجنب هذا الدنس ، وعدم الخزى والعار له أمام ضيوفه . وأخيراً صاح فيهم معبراً عن استنكاره لقدومهم : أنه كان يتمنى أن يكون بينهم عاقل ينصحهم ، ويحتكمون هم إليه ، كى يردهم عن فحشهم وعبثهم . ولكن لم يجد نداؤه ، وتجد صيحته شيئاً ، ولم تضعف من عزمهم على تنفيذ ماقدموا من أجله ، وأجابوه بأن نداءه ليس ذا موضوع لديهم ، لأنه يعلم حقيقة ما يريدون وواقع مايباشرونه فى سلوكهم من إتيان الرجال دون النساء) . « قال: لو أن لى بكم قوة، أو آوى إلى ركن شديد »

---

(١) الحجر : ٧٠ .

وإزاء تعنتهم وقسوتهم فى الرد عليه أمام ضيوفه تمنى أن تكون له قوة ذاتية يدفعهم بها ، أو أن يكون له سند قوى يلجأ إليه ليقيه ويقى ضيوفه من شذوذهم . تمنى ذلك فى الوقت الذى يوجد له فيه سند عزيز لا يقهر ، وهو الله سبحانه . ولكن فرط تأثير الموقف عليه ، جعله يبطىء فى تيقظه لهذا السند العزيز . فلما تيقظ نادى ربه : **(رب نجنى وأهلى مما يعملون)** (١) . « قالوا يا لوط إنا رسل ربك ، لن يصلوا إليك ، فأسر بأهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد ، إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب ؟ » (وعلى أثر دعائه نادته الرسل من الملائكة التى جاءت إليه ، وأبلغته بأنه مؤمن على حياته هو والمؤمنون معه ، وأنهم لا يصل إليهم جميعاً ضرر من أحد . باستثناء زوجته التى قضى عليها لكفرها ، بأن يحل بها ما يحل بقومه الكافرين من عذاب . وحددت له طريق النجاة ، وهو ترك القرية مع بقية من ظلام الليل ، أى قبل ضوء الصباح ، دون أسف على تركها ، وفى غير التفات إلى ما يقع فيها من أحداث . كما أبلغته هذه الرسل أن الصبح قد حدد فى قضاء الله لوقوع العذاب على قوم لوط ، وهو وقت قريب جداً) « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها » (أى فلما جاء موعد العذاب ، وقع الزلزال وسقط ما هو أعلى فى المساكن والأشجار إلى أدنى) « وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك » (وكان فعل الزلزال عنيفاً بحيث كان سقوط الأحجار الصلبة التى كانت منضدة ومرتبة فى البناء ، إلى أسفل ، يشبه فعل المطر فى تتابع سقوطه ، وفى تدميره لكل ما يلتقى به حال شدته وعنفه . ولذا كان هذا الزلزال وما أحدثه من تخريب : آية من آيات الله (وتركنا فيها (فى قرى لوط) آية للذين

---

(١) الشعراء : ١٦٩ .

يخافون العذاب الأليم) (١) . فهو يحمل أمارة إلهية : « مسومة عند ربك » .. أى يحمل غضب الله ، لأنه كان غير عادى) « وماهى من الظالمين ببعيد » (وما وقع لقوم لوط بظلمهم وعبثهم هو قريب أن يقع للظالمين ممن عداهم . فهذه أحجار البناء التى كانت تتساقط من أعلى إلى أسفل بفعل الزلزال والتى يدل سقوطها بما يشبه المطر فى عنفه وشدته ، على غضب الله ممكن أن يتكرر أمرها كعقاب إذا أساءت بعض المجتمعات لنفسها ، واستكبرت عن اتباع الحق ، ومباشرة العـدل ، عن طريق عبادة الله وحده) .

* وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

وتستمر السورة فى الاستشهاد بالتاريخ وأحداثه ووقائعه على أن المجتمع المادى تؤدى به انحرافاته فى السلوك وفى العلاقات إلى الفناء لا محالة ، انتقاماً من الله لعبث زعمائه وكبر . وهكذا مجتمع المكيين الماديين ستنتهى بهم معارضتهم لدعوة الرسول عليه السلام إلى ما انتهى إليه أمر هذه المجتمعات . فتذكر مجتمع مدين . ويقال إن مدينة « مدين » كانت تقع فى الجهة الشرقية

---

(١) الذاريات : ٣٨ .

من خليج العقبة . كما يقال : إن أهل مدين ينحدرون من قبائل عربية كانت تجاور الكنعانيين . كما كانوا أهل تجارة ، وبالأخص فى الحبوب . وكانت لهم من أجل ذلك صلة وثيقة بمصر . إذ كانوا يترددون عليها لتقل ما يحتاجون إليه فى تجارتهم . ويسند إليهم أنهم الذين نقلوا معهم يوسف الصديق ، كرقيق ، إلى مصر ، كما تصوره الآية القرآنية فى سورة يوسف : **(وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، قال يا بشرى : هذا غلام ، وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس ، دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين) (١) .**

« وإلى مدين أخاهم شعيباً قال : يا قوم اعبدوا الله ، ما لكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إنى أراكم بخير ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط » (وبالإضافة إلى قصص المجتمعات السابقة تأتى أيضاً قصة شعيب ورسالته لأهل مدين ، وهو واحد من بينهم ، وليس أجنبياً عنهم . وقامت دعوته فى رسالته لهم على أمرين :

الأمر الأول: توجيههم نحو وحدة الألوهية وعبادة الله ، دون ما عداه من كائنات أخرى جعلت كذباً : شركاء له .

والثانى : أمرهم بالعدل فى التجارة . وقد كان قوامها الكيل والميزان . وإذا كان أهل مدين يتميزون بالمال المستثمر فى المعاملات التجارية ، فقد كان أهل ثمود من قبل فى جوارهم من الشرق أصحاب ثروة حيوانية . وإذا نصح شعيب قومه بالعدل فى التبادل التجارى ، فإنه أكد لهم أن وضعهم المالى — من غير حاجة إلى بخس الكيل والميزان فى المعاملات — هو وضع يجعلهم من أهل الثراء . كما أكد لهم فى الوقت نفسه : أنه يخشى عليهم من

---

(١) يوسف : ١٩ — ٢٠ .

استمرارهم فى مباشرة الظلم : أن ينالهم عذاب الله فى دنياهم ، فتضيع عليهم أموالهم ، وتزهق أنفسهم ، ويصبحون أثراً بعدعين . وهكذا :يكون عذاب الله لهم عذاباً شاملا ومحيطاً بكل شىء لهم).« ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين. بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ،وما أنا عليكم بحفيظ »(ثم كرر نصحهلم بالابتعاد عن الظلم فى المعاملات التجارية ، وبالانتهاء منه إلى غير رجعة إليه . لأن الاستمرار فيه استمرار فى الفساد فى الأرض . وعاقبة الفساد هى استئصال المفسدين . وأوضح لهم أن الباقى لهم من أرباح التجارة –من غير بخس للكيل والميزان فيها– أجدى عليهم فى حياتهم وفى ثرواتهم إذانظروا للموضوع نظرة المؤمن الذى أبعد عن نفسه شهوة الانحراف فى الاستغلال . ورغم أنه واحد منهم ، وحريص على مصلحتهم ، وذو صلة بالله سبحانه فى رسالته ، فإنه مع ذلك لا يملك أن يحفظ عليهم وضعهم القائم فى الثراء والاستمتاع بالمال. لأن المدبر للكون وحده هو الذى يملك الأمر ويتصرف فيه .وهو لا يرضى عن الظلم إطلاقاً) .

قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

ولكن لم يجد معهم نصح شعيب لهم ، وتحذيره إياهم من عاقبة ظلمهم فى معاملاتهم التجارية ، فأجابوه بما ينبىء عن استهزائهم برسالته : «قالوا: يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ؟»(أى هل تتصور أن دعاءك لنا بالاستقامه ، يحول بيننا وبين أن

نستمر فى عبادة آلهتنا ، كما كان يفعل الآباء من قبل ؟ أو يحول بيننا وبين أن نباشر حريتنا المطلقة فى الطريقة التى نستثمر بها أموالنا ؟ .

ومعنى ذلك : أن ما جئت به تدعونا إليه يجعلنا نتوقف عن الماضى لآبائنا وأجدادنا فى العبادة ، ونتوقف كذلك عن الطريقة التى نتعامل بهـا حتى الآن فى تجارتنا) « إنك لأنت الحليم الرشيد ؟» (وهذا الذى تطلبه منا على هذا النحو لا يتوقع من إنسان عرف فيما بيننا بالتريث فى القول ، والنضوج فى الرأى . وهو أنت ، وبذلك دعوتك لا تطابق صورتك فى نفوسنا .

وإنكار أهل مدين على شعيب دعوته آت من تأثرهم بوضعهم الماضى والحاضر ، وعدم قدرتهم على الانفكاك منه وتقييم ما جاء فى دعوته تقييما موضوعياً مجرداً عن التبعية . فهو إذ يدعوهم إلى عبادة الله وحده يدعوهم إلى التمسك بكرامتهم كبشر . وإذ يدعوهم إلى تقييد حريتهم المطلقة فى استثمار المال ، عن طريق اتباع العدل وعدم البخس فى الكيل والميزان فى المعاملة التجارية ، إنما يدعوهم إلى حياة بعيدة عن الخوف والقلق والاضطهاد من الآخرين الذين يحقدون عليهم ، ويبيتون لهم العداء، ويتربصون بهم السوء).

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾

وهنا كشف شعيب لهم : عن أن ما يدعوهم إليه ليس من عند نفسه ، وإنما من عند الله : « قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى» (أى

إننى على صلة بالله سبحانه وعلى بينةمن رسالته .فما أدعوكم إليه هو لمصلحتكم وليس لزعامة أطلبها فيكم) « ورزقنى منه رزقاً حسنا »(كذلك ليس لأجر أطلبه منكم . فإن الله هو الذى يتكفل برزقى . وما ينفيه شعيب هنا فى دعوته من أنه ليس صاحب مصلحة شخصية ، ولا طالباً لأجر على رسالته ممن يدعوهم إليها هو ما ينفيه كل رسول أرسل إلى قومه : (**قل لا أسألكم عليه أجراً ، إن هو إلا ذكرى للعالمين**)(١) « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت » (ثم بالإضافة إلى أنى لا أطلب زعامة فيكم ، ولا مالا منكم ، لا أريد إطلاقا أن أعود إلى عبادة ما تعبدون ، ولا إلى سلوك ما تسلكون فى جمع المال . لا أريد أنأخالف ا أدعوكم إليه من عبادة الله وحده ، والعدل فى الكيل والميزان إلىماأنهاكم نه من الشرك والوثنية ، والظلم فى المعاملة التجارية . إنى أريد بدعوتى فحسب : إصلاحكم واستقامة أمركم)« وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب »(وشأنى فيما أريده لكم ، هو شأن الداعى فقط ، لا يحمل ولا يكره . فإن وفقت فيما أدعو إليه ، كان توفيقى من الله وحده . فهو الذى أعتمد عليه فى كل شأن أباشره ، وهو الذى أرجع إليه عند الخطأ) .

« ويا قوم لايجرمنكم شقاقى : أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، أو قوم هود ، أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد .واستغفروا ربكم ثمتوبوا إليه ، إن ربى رحيم ودود»(ولا ينبغى لكم إطلاقاً أن تحملكم مخالفتى لكم فيما أدعوكم إليه : على الجنوح والتمادى فى المعارضة . وإنما يجب أن تنحوا المخالفة جانباً ، وتنظروا فيما أدعوكم إليه نظرة موضوعية ، بغض النظ عن أنى أنا الداعى إليه . وعندئذ لا يسعكم إلا أن تؤمنوا به وتستغفروا

---

(١) الأنعام : ٩٠ .

ربكم عما مضى منكم من أخطاء ، وما أصررتم عليه من معارضة حتى الآن ، وتعودوا إلى الله تائبين . وسبحانه جلت قدرته سيسعكم برحمته ويرعاكم بعنايته ومودته ، فهو رحيم ودود . ولكن إذا ما تشبثتم بما أنتم فيه من أوضاع فعذاب الله سيحل بكم فى دنياكم ، كما حل بمجتمعات أخرى سابقة عصت دعوة رسولها ، وتمادت فى غيها وفسادها . فهناك قوم نوح ، وهناك قوم هود ، وهناك قوم صالح . وبالأمس القريب منكم قوم لوط . فهذه مجتمعات سادت فيها الوثنية والشرك بالله ، بجانب انحرافات أخرى خطيرة على البشرية . فقوم هود طغوا بالقوة المادية . وقوم ثمود تمادوا فى احتكار الثروة الزراعية والحيوانية وجعلوها وقفاً على زعمائهم وكبرائهم . وقوم لوط عملوا على انقراض الجنس البشرى ، عن طريق شذوذهم فى العلاقة الجنسية) .

قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

ومع كل ما تقدم به شعيب من حجج إلى قومه ، من شأنها أن تحملهم على التفكير على الأقل فيما يدعوهم إليه ، فإنهم بقوا فى مكانهم من دعوته . فهو لم يطلب زعامة فيهم ، ولا مالا منهم . وإنما يطلب إصلاح أمرهم . ومع ذلك بقى

خصماً لهم ، ولم ينحوا خصومته جانباً ، علهم يفيدون من دعوته. بل واجهوه بما يواجه به إنسان أحمق، يقول مالا يفهمه الآخرون معه، «قالوا : ياشعيب ما نفقه كثيراً مما تقول»(وحقيقة الأمر هم لايريدون أن يتحولوا من مجتمعهم الجاهلي المادى الذى تركه لهم آباؤهم . . إلى المجتمع الإنسانى الذى يدعوهم شعيب إلى تكوينه . وذلك لعامل التقاليد الموروثة فى العبادة ، ولعامل الإغراء فى ربح المال ، عن طريق الظلم والبخس فى المعاملة التجارية .ومن لايريد شيئاً إذا دعى إليه يعتذر عادة بأنه غير فاهم لما يدعى إليه . وهو عندما يجيب داعيه بعدم الفهم لما يقوله ، يحمل إليه فى جوابه بالنفى كذلك معنى السخرية والاستهزاء)« وإنا لنراك فينا ضعيفاً ، ولولا رهطك لرجمناك، وما أنت علينا بعزيز » (وأولى لك ياشعيب الآن ألا تجدد دعوتك . فإنك لاتعرف مدى أثرها الضار على قومك . وأنت لست من القوة بحيث نخشاك . فأنت ضعيف ، ولست فى منعة من أن نقتلك رمياً بالحجارة، مهانة لك واحتقاراً لشأنك .

وفقط هناك اعتبار واحد ندخله فى حسابنا • فى عدم قتلك . وهو قبيلك ورهطك) . « قال ياقوم : أرهطى أعز عليكم من الله ؟ واتخذتموه وراءكم ظهرياً » (ولكن شعيب ذكرهم بأنهم أخذوا فى اعتبارهم بشأن المنعة • رهطه فحسب • وتركوا جانب الله بالنسبة لشعيب وأغفلوا أمره مع أنه جانب أصيل ، وأمره أكثر منعة وعزة • يحمي رسله ، وينجيهم من العذاب ، عندما ينزل العقاب الشامل بقومه . ولذا ليس لتهديدهم أثر على دعوته واستمراره فيها) «إن ربى بما تعلمون محيط»(وربى جلت قدرته يحيط علمه بما يدور بينهم وبما عقدوا النية على عمله لصد الناس عن رسالته) . « وياقوم اعملوا على مكانتكم ، إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب»(وطالما أن الله جلت قدرته أقوى

منعة وأشد عزة . . وطالما كذلك علمه أكثر شمولا وأوسع إحاطة ، وهو سندى وعليه توكلت : فإنى أتحداكم بأن تعملوا ما فى استطاعتكم وما هو وفق مقدوركم ، ضدى وضد رسالة الله ومن جانبى سأعمل أيضاً كل ما فى وسعى للدعوة وللإيمان بها . وستعرفون فى النهاية : أينا كان على صواب . . وأينا سيحل به العذاب المخزى له فى دنياه . . وأينا كان الكذاب فيما قال ؟ . إنى أدعوكم إلى ترقب هذه النتيجة وانتظارها ، وإنى معكم من المترقبين والمنتظرين ، ثقة منى بأنكم أنتم الكذابون ، والذين سيقع عليهم العذاب المهين) . «ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها »(وحل موعد العقاب ، فوقع الزلزال المدمر ، وأتى على أهل مدين جميعاً بسبب ظلمهم ، بإصرارهم على الشرك والوثنية ، وبقائهم على الإضرار بالآخرين فى المعاملات التجارية ، واستمرارهم فى معارضة شعيب وتهديده بالقتل إن لم يكف عن دعوته . عدا شعيب والمؤمنين معه برسالته . فقد شملهم الله برحمته ، ونجاهم من هذه الكارثة .

والمتتبع لآثار الأمم والمجتمعات البشرية لوقيض له — بعد وقوع هذا الزلزال مباشرة : أن يتعرف على ديار أهل مدين ومساكنهم ، لايستطيع أن يستنتج أنه كانت هناك ديار ومساكن مأهولة بالسكان ، لفرط ما وقع من تخريب ، وتشتيت ، وفناء)« ألا ! بعداً لمدين، كما بعدت ثمود»(وهكذا انتهت مدين وهلكت فى غير أسف على نهايتها وانتهى مجتمعها الظالم ، كما انتهى مجتمع ثمود من قبل ، فى غير إحساس بألم النهاية ، للمآسى التى كان يباشرها فى حق الضعفاء) .

*

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

ويأتى فى ختام المجتمعات المادية التى تقص هذه السورة ما انتهت إليه من فناء وتقويض : مجتمع فرعون وملئه . ولكنها تقص وضعه ومصير فى إجمال تام . إذ تناولته سور أخرى مكية فى إسهاب وتفصيل ، كسورة الأعراف ، وسورة طه ، وسورة الشعراء ، وسورة القصص : «ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه» (فقد أرسل الله موسى ومعه أخاه هارون برسالة إلى فرعون : (**فأتياه فقولا إنا رسولا ربك، فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك ، والسلام على من اتبع الهدى**) (١) . وكانت آيات موسى الذى أرسل بها — وهى سلطانه وحجته الواضحة على رسالته — تلك الآيات التى أراها فرعون فكذب بها ، وأبى الطاعة لرسالته : (**ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى**)(٢) . وظن أنها من أعمال السحر ، فجمع له السحرة بمصر تحدياً له. ولكنهم عندما رأوا عصاه التى بيمينه والتى كان يهش بها على غنمه ، تلقف ما صنعوه هم بسحرهم ، آمنوا برسالته : (**فألقى السحرة سجداً ، قالوا آمنا برب هارون وموسى**)(٣) « فاتبعوا أمر فرعون » (ولكن

---

(١) طه : ٤٧ . (٢) طه : ٥٦ . (٣) طه : ٧٠ .

الملأ والوجهاء فى قوم فرعون سلكوا مسلك الملك نفسه ، وكفروا برسالة موسى تبعاً لما أمرهم به ، رغم إيمان السحرة بها وهم لهم شأنهم العظيم وأصحاب التأثير الواسع النطاق فى الحياة المصرية إذ ذاك) « وما أمر فرعون برشيد » (ولكنهم اتبعوا أمراً غير حكيم . لأن اتباعهم إياه سيوصلهم إلى حرج فى حياتهم الدنيوية ، وإلى عقاب بالنار فى حياتهم الأخروية) .
« يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار »(إذ فرعون ذاته سيتقدم هؤلاء الملأ يوم الجزاء فى الآخرة إلى النار ، كعقاب له على طغيانه وكفره برسالة موسى . وهم واردون مورده ، لأنهم اتبعوا نفس الطريق الذى سار فيه . فمقامهم فى النار آنئذ)« وبئس الورد المورود »(وما أشنع المصير الذى صاروا إليه) .« وأتبعوا فى هذه لعنة ، ويوم القيامة »(فضلاعما لحقهم فى هذه الحياة الدنيا ، وما يلحقهم فى الآخرة من لعنة وطرد من رحمة الله ورضاه،وطردهم من رضاء صاحب الملك كله أقسى عليهم من عقابهم المادى بالغرق فى البحر فى الدنيا ، والدخول فى نارجهنم فى الآخرة)« بئس الرفدالمرفود»(وماأصاب هؤلاء الملأ على هذا النحو من عطاء فرعون لهم — إذ لم يصلهم منه إلا الشقاء ، بسبب اتباعهم لأمره وهواه — أمر مذموم . لأن عاقبته لاتسر) » .

* * *

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)

وتتجه السورة الآن إلى الرسول محمد عليه الصلاة والسلام فيخاطبه ربه، ويضعه أمام الحقائق التى تستخلص من تاريخ هذه المجتمعات الستة للوقوف عليها واحدة إثر الأخرى ، لاستيعابها والمواءمة فى السلوك معها. وما يخاطب بة الرسول هنا عليه السلام يخاطب به المؤمنون برسالته كذلك : « ذلك من أنباء القرى نقصه عليك، منها قائم ، وحصيد » (أى ماذكر حتى الآن هو أخبار المجتمعات التى أوحى بها إليك . وهى مجتمعات بعضها يمكن أن يتعرف عليه بآثاره الباقية . والبعض الآخر قد درس ولم يبق له أثر يشير إليه. ولكنها كلها كانت مجتمعات مادية طغت وانحرفت عن سلوك الإنسانى السوى . فيها المجتمع الذى طغى بقوته . وفيها المجتمع الذى طغى بثرواته الحيوانية والزراعية . وفيها المجتمع الذى طغى برأسماله . وفيها المجتمع الذى طغى بحضارته ، وفيها المجتمع الذى طغى بشذوذه . وهى جميعها إذ تشترك فى شىء ما ، فهو عبادة غير القمعة ، سبحانه ، « وما ظلمناهم ، ولكن ظلموا أنفسهم » (وما حل بهذه المجتمعات من تغيير : من فنائها بالكوارث الطبيعية ، ثم من قيام مجتمعات جديدة تختلف عنها ، يعود إلى ما باشره الكبراء والزعماء فيها من ظلم للضعفاء بينهم . قد يكون ظلم المستبدين . وقد يكون ظلم المحتكرين . وقد يكون ظلم المبادلين فى المعاملة : وقد يكون

ظلم المستغلين. وقد يكون ظلم المعتدين على الجنس البشرى كله والتهديد بانقراضه:

وعلى أية حال ، كان استئصال الكوارث لهذه المجتمعات ليس بظلم من الله ، ولكن بسبب الظلم الذاتى فيها)« فما أغنت عنهم آلهتهم ، التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب » (وما أشركته هذه المجتمعات من آلهة أخرى ، مع الله ، لم تنفعها فى حمايتها ووقايتها من تلك الكوارث التى نزلت بها ، عندما قضى الله بها ، عقوبة لها على طغيانها وظلمها . بل على العكس كان هذا الشرك سبباً فى زيادة تلك المجتمعات من أضرار . فلم تكن الكوارث التى أصابتها كوارث عادية . وإنما كانت كوارث عاتية ، لم تبق ولم تذر شيئاً من مساكنها وأموالها) . « وكذلك أخذ ربك ، إذا أخذ القرى وهى ظالمة » (وعلى هذا النحو من التدمير يكون قضاء الله على المجتمعات العابثة ، بسبب ما يسود فيها من ظلم ، فلم يكن ماقضى الله به من زوال : على مجتمعات نوح ، وعاد ، وثمود ، ولوط ، ومدين وفرعون وملئه — وهى المجتمعات التى قصت هذه السورة هنا ما آلت إليه — أمراً وحيداً خاصاً ، لايتكرر لأمثالها . بل قضاء الله بزوال أى مجتمع وبتغييره مرتبط بما يقع فيه من ظلم ، فى أية صورة من صوره. فتغيير المجتمع أمر لايتخلف فى إرادة الله عندما يباشر زعماؤه وكبراؤه وقادة التوجيه فيه صنوف الظلم والاضطهاد للمتبوعين والضعفاء فيه. سواء بالأمس كما يتحدث التاريخ ، أو فى الغد عندما يأتى موعد التغيير عليه . وهذا الموعد رهن فقط بتفشى الاعتداء والظلم فيه) « إن أخذه أليم شديد » (وأخذ الله للمجتمعات الظالمة ليس ضرورة فحسب . بل هو أخذ شديد لا لين فيه ، وأليم ينفذ ألمه إلى العمق) . هذه إحدى الحقائق التى تستخلص من ذكر تاريخ البشرية وأحداث مجتمعاتها .

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

والحقيقة الثانية — وهى من الآيات المحكمة ، أو المبادىء التى لا تتخلف — حقيقة البعث والحياة الأخروية : « إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة »(والذى يؤمن بالبعث وبالحياة الأخروية يتخذمن الحقيقة السابقة ، وهى حقيقة تغيير المجتمعات وزوالها بسبب الظلم بين أهلها وقضاء الله بذلك ، دليلا على أن أمر البعث لا مرية فيه ، وأنه واقع فعلا . فليس شأنه فى قدرة الله أكثر من شأن تغيير المجتمعات البشرية)« ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود » (والبعث نفسه وقت تحشد فيه الناس جميعاً ، ويشهده كل من سبقت له حياة بشرية على هذه الأرض) . « وما نؤخره إلا لأجل معدود » (وهو وقت إذا حل أجله فى علم الله ، فلا يتأخر بعده). «يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه» (وقد ورد فى سورة النبأ أن الذى يؤذن له بالكلام فى هذا اليوم هو بعض من الملائكة : **(يوم يقوم الروح** (أى جبريل) **والملائكة صفاً ، لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً)**(١)

---

(١) النبأ : ٣٨

كما جاء فى سورة المرسلات أن الكافرين لايؤذن لهم بالكلام اعتذاراً عما وقع من معارضتهم فى الدنيا أو رجاء فى أن يعطوا فرصة أخرى للعمل الصالح والإيمان بالله وحده : (هذا يوم لاينطقون ، ولايؤذن لهم فيعتذرون)(١). «فمنهم شقى وسعيد . فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق»(ومعنى أنهم فى النار لهم فيها زفير وشهيق : أنهم أحياء فيها ، ولا يقضى عليهم فيموتوا . فالهواء حين يدخل فى التنفس إلى الرئتين يسمى زفيراً وحين يخرج منها يسمى شهيقاً . وهما معاً أمارتا الحياة فى الكائن الحى .وعذاب الكافرين فى نار جهنم هو فى بقائهم فيها أحياء . وقد جاء ذلك فى قول الله تعالى فى سورة فاطر : (والذين كفروا لهم نار جهنم ، لايقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ، كذلك نجزى كل كفور ، وهم يصطرخون فيها : ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل ، أو لم نعمركم ، ما يتذكر فيه من تذكر ، وجاءكم النذير ، فذوقوا فما للظالمين من نصير)(٢) .. كما جاء قوله جل شأنه فى سور النبأ : (إن جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآباً ، لابثين فيها أحقاباً ، لايذوقون فيها برداً ولاشراباً ، إلا حميماً وغساقاً)(٣) . وتشير سورة النساء إن احتفاظ الكافرين بإحساس العذاب فى نار جهنم فى قول الله تعالى : (إن الذين كفرو بآياتنا سوف نصليهم ناراً ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ، إن الله كان عزيزاً حكيماً)(٤) ..

---

(١) المرسلات : ٣٥ — ٣٦ .

(٢) فاطر : ٣٦ — ٣٧ .

(٣) النبأ : ٢١ — ٢٥ .

(٤) النساء : ٥٦

مما يدل على أنهم أحياء فيها . ومثل هذه الآية ما جاء فى سورة الحج فى قوله سبحانه : (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ، يصب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود • ولهم مقامع من حديد (هراوات يضربون بها فوق رءوسهم) • كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها، وذوقوا عذاب الحريق)(١) . « خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ، إن ربك فعال لما يريد » (وحياتهم فى نار جهنم ليست حياة مؤقتة ، بل هى حياة طويلة ومديدة وباقية ، طالما بقيت السموات والأرض . وربط خلود الكافرين فى نار جهنم ببقاء السموات والأرض يفيد بقاء السموات والأرض بعد البعث، وإن كان على نحو آخر : كتمتع الحياة الدنيا فإنها مستمرة كذلك فى نعيم الجنة فى الآخرة ، وإن كانت من نوع يغاير ما عليه نوع الدنيا فى قيمته وفى مدى المتعة به . فقد جاء فى وصف الجنة مثل قوله تعالى فى سورة النبأ : (إن للمتقين مفازاً • حدائق وأعناباً • وكواعب أتراباً • وكأساً دهاقاً • لايسمعون فيها لغواً ولا كذاباً • جزاء من ربك عطاء حساباً)(٢) • فهذه الآيات تصف متعها : من النساء ، وما يؤكل ، ويشرب . وهى المتع الغالية التى تشتهيها نفوس البشر فى حياتهم الدنيوية .

وجاء فى بقاء السموات والأرض بعد البعث فى سورة إبراهيم قوله تعالى :(فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله، إن الله عزيز ذو انتقام • يوم تبدل الأرض غير الأرض، والسموات وبرزوا لله الواحد القهار)(٣). فتبدل الأرض غير الأرض ، والسموات غير السموات يوم البعث والحساب، لايعنى انتهاء الأرض والسموات . بل يفيد : أنه ستكون هناك

---

(١) الحج : ١٩ – ٢٢ (٢) النبأ : ٣١ – ٣٦

(٣) إبراهيم : ٤٧ – ٤٨

أرض وسموات ، ولكن أرض وسموات من نوع آخر غير ما عليه الأرض والسموات فى الدنيا . وتقييد خلود العذاب للكافرين فى نارجهنم بمشيئةالله: « إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد » . . كتقييد نعيم الجنة بها بالنسبة للمؤمنين فى الآية التالية : « إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ » لا يقصد به توقيت جزاء جهنم لبعض من هم من أهل جهنم ، يخرجون بعد الوقت المعلوم منها إلى الجنة ، ولا توقيت جزاء الجنة لبعض من هم من أهل الجنة يخرجون بعد الوقت المعلوم إلى جهنم . وإنما القصد أولا وأخيراً : توضيح أن الله جل جلاله مريد إرادة تامة لا يشوبها إلزام ما ، ولو كان عن طريق وعده هو سبحانه بأمر ما فوعد الله ليس فوق إرادته ، وإنما هومن مشيئته: يقع فى حدود المشيئة الإلهية ، ويظل فى نطاقها . وهكذا الاستثناء فى الآيتين لاينصب على أفراد . وإنما يؤكد عدم الإلزام فىجانب المولىسبحانه فى أية صورة من صور الإلزام) . «وأما الذين سعدوا فنى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ،عطاء غير مجذوذ» (أى هذا النعيم للسعداء هو عطاء من الله غير منقطع . ويوم البعث إذن كحقيقة من الحقائق المقررة هو يوم لا يرجأ ، إذا حل موعده فى علم الله ، وهو يوم الجزاء ، وفيه بعد الفصل فى أعمال البشر جميعاً : يساق الكافر إلى جزائه ، وهو الخلود فى النار ، ويساق المؤمن إلى جزائه كذلك ، وهو البقاء فى نعيم الجنة) .

* * *

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

ثم بعد استخلاص النتائج لهذه الصور التاريخية للمجتمعات البشرية التى انتهى أمرها إلى الفناء والتغيير ، بعد طغيان زعمائها وتحكمهم فى الضعفاء فيها ، ومعارضتهم فى إصرار لرسالة الله التى جاءت لتحقيق العدل وروح الإخاء بين الأفراد جميعاً ، وكذلك بعد الوقوف على ما عقبت به السورة هنا – إثر الاستشهاد بالتاريخ لتلك المجتمعات – من تأكيد وقوع الجزاء الأخروى يوم البعث والحساب ، ومن أن العقاب فى جهنم لفريق من الناس ، إنما هو بسبب ظلمهم هم وحدهم . يتجه القرآن الكريم إلى الرسول محمد عليه السلام ، فى نهاية هذه السورة الآن ويطلب إليه ، كقدوة حسنة للمؤمنين ، أن يتبع هذه المبادىء الآتية التى أحكمت ، والتى تكمل ما جاء من قبل فى هذه السورة من آيات محكمات ، عبرت عنه بقول الله تعالى « آلر . كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

فتطلب اليه عليه السلام . ألا يكون فى شك من أن هؤلاء الماديين المكيين إنما يسيرون فى عبادتهم وفق ما كان عليه آباؤهم من قبل . ولذا : لا يؤمل كثيراً فى تحولهم عن جاهليتهم ووثنيتهم إلى الإيمان بالله وحده ، وإلى أن يكونوا مسلمين وخاضعين لله فى سلوكهم : « فلاتك فى مرية مما يعبد هؤلاء ، ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل» (وكانوا يعبدون الأوثان

ويشركون مع الله آلهة اخرى) «وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص» (كما يؤكد المولى سبحانه لرسوله الكريم عليه الصلاة والسلام : أن هؤلاء المشركين الوثنيين سينالون حقهم كاملا فى الجزاء الأخروى . وهو ذلك الجزاء الذى يصيب الإنسان بسبب عمله فى الدنيا . وهو جزاء لا يتخلف إطلاقاً ، غير أنه مرتبط بمشيئة الله) . «ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ، وإنهم لفى شك منه مريب» (ويريد المولى سبحانه الآن أن يطمئن الرسول عليه السلام ، فيذكر له : أن موقف المكيين الوثنيين فى معارضتهم لدعوته لم يكن موقفاً فريداً فى تاريخ الرسالة الإلهية . بل هذه رسالة موسى أصابها الكثير من مواقف المعارضة ، واختلف شعب بنى إسرائيل بين الإيمان والكفر بها اختلافاً شديداً . وشاءت إرادة الله جل شأنه أن يؤخر جزاء الكافرين بها إلى يوم البعث ، لحكمة يعلمها هو ، فيما سبق فى علمه ، عند ما فصل فى أمر تأخير هذا الجزاء . ولأن هؤلاء الكافرين بكتاب موسى هم من الماديين الذين لا يؤمنون إلا بالمشاهد المحسوس على نحو ما طالبوا موسى : أن يريهم الله جهرة وعلانية ، وعلى نحو ما عبدوا عجل السامرى : هم كذلك يشكون فى وقوع هذا الجزاء الأخروى ، فيما وراء هذه الدنيا التى يلمسون حياتهم فيها ، ويسعون إلى تحصيل متعها المادية) «وإن كلا» (أى من الفريقين فى بنى إسرائيل . من آمن بكتاب موسى ، ومن كفر به) «لما ليوفينهم ربك أعمالهم» (أى سيوفى من الله بجزائه على عمله مؤكداً وفى غير نقصان) «إنه بما يعملون خبير» (إذ الله سبحانه قادر على أن يفى حق الوفاء بجزاء كل من الفريقين فى دقة ، لأنه خبير ومحيط فى خبرته بنوع العمل الذى يباشره كل فريق منهم . وإذن ليكن شأنك أيها الرسول — عليك صلوات الله وسلامه — شأن من سبقك من الرسل القريبين

منك والبعيدين عن زمنك فى التاريخ . ولا تهتز بمعارضة المعارضين من وثنيى مكة ، فلهم جزاؤهم فى الآخرة . أما أنت فلا تنتظر كثيراً منهم) .

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

ويطلب إليه – عليه السلام – أيضاً : أن يسير وفق هداية الله ، هو والمؤمنون معه ، دون أدنى حرج من خوف أو رهبة من هؤلاء المكيين ودون أى أمل فيهم : « فاستقم كما أمرت ، ومن تاب معك» (وعبر عن المؤمنين برسالته بمن تاب معه ، قصداً إلى أن المؤمنين بالله فى تحولهم من الجاهلية المادية إلى الروحية الإنسانية أو الإسلامية : عادوا من الخطأ إلى الصواب . أى عادوا إلى الوضع الذى يجب أن تكون عليه البشرية . إذ هو الوضع الأصيل . فوجودهم إذن فى الجاهلية هو وجود شذوذ وانحراف . . فهم بإيمانهم الآن تائبون وعائدون الى الوضع الصحيح . واستقامة الرسول والمؤمنين معه هى اتباعهم لهداية الله فى كتابه ، وهو القرآن . ومن هداية الله تجنب الشرك وما كان يعبده هؤلاء المكيون وآباؤهم من قبل) « ولا تطغوا» (أى عن طريق العودة إلى الجاهلية وسماتها » إذ أخص هذه السمات : طغيان الأنانية ، وحب الذات بالقوة المادية : بالمال ، أو بعصبية الأولاد والقبلية والأسرة ، وكذلك بالشرك وعبادة الأوثان أملا فى أن تحقق عبادتها نفعاً للذات)«إنه بما تعملون بصير » (وكما هو سبحانه خبير بأعمال الكافرين والضالين فهو بصير بأعمالكم ، ورقيب عليها) .

كما يطلب إليه صلوات الله عليه وسلامه بالإضافة الى ما تقدم أربعة أمور أخرى :

وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

أولا : ألا يطمئن إلى هؤلاء الكافرين المشركين والوثنيين الماديين : فلا يؤمل فى إيمانهم ، ولا يثق بوعودهم ، ولا يخدع بمعسول قولهم ، أو بما يعرضونه من صور المواءمة : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا »(وهم هؤلاء الكافرون . وعبر عنهم بالظالمين بدلا من الكافرين أو الوثنيين الماديين ، ليوضح أن سبب عدم الركون والاطمئنان اليهم يرجع الى شيمتهم فى الظلم) «فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ، ثم لا تنصرون» (إذ سيترتب على الاطمئنان والركون إليهم الوقوع فى مهالك الحياة ، ونار الهزيمة فى الدنيا والعقاب فى الآخرة . وعندئذ إذا حل أمر الله فلا راد له . إذ ليس هناك ولى فى الأرض ولا فى السماء يحول دون العقاب سواه ، سبحانه.

ومع هذا العقاب تكون الهزيمة ويكون الفشل للمؤمنين ، طالما أن الله يتخلى عن تأييده لمن يركن من المؤمنين الى عدو الله وعدوهم معاً ، وهو ذلك المشرك المادى المنكر للألوهية فى وحدتها ، وللبعث فى وقوعه وإذن يجب أن يفهم المؤمنون هنا أن اطمئنانهم فى حياتهم وفى علاقتهم إلى أعدائهم الملحدين الماديين مقدمة توصلهم حتما إلى الهزيمة فى حياتهم . فالربط بين المقدمة والنتيجة فى هذا المجال ، يصور إرادة الله فى حياة المجتمع الإنسانى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم

أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون) (١) .. إلى أن يقول سبحانه : (إن تمسسكم حسنة تسوءهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ، إن الله بما يعملون محيط)(٢) ومع أن هذا الربط يصور إرادة الله فهو قانون إنسانى من قوانين الحياة الإنسانية التى لا يتخلف عنها فرد أو مجتمع) .

وثانياً : أن يتجه عليه السلام بالصلاة الى ربه فى أول النهار وآخره ، وفى أثناء الليل ، ليستمر صفاء قلبه : وتزداد صلته بربه ، مما يشجعه على الثبات فى وجه معارضى دعوته والمتحدين لرسالته : « وأقم الصلاة طرفى النهار ، وزلفاً من الليل » والخطاب هنا للرسول عليه السلام وحده ، لأن هذا جاء فى أوائل العهد المكى . والصلاة بذلك فرضت قبل العبادات جميعها فرضت والرسول صلوات الله عليه بمكة ، لم يبرحها بعد إلى يثرب).

وثالثاً : أن الحسنى فى المعاملة والسلوك تبعد كثيراً من السيئات فى طريق العلاقات بين الناس فهى الخطوة الأولى فى الترابط وإزالة سوء التفاهم . ولكنها ليست الطريق إلى رد الظلم والعدوان : « إن حسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » (أى ذلك من حيث المبدأ فى المعاملة ، إذا لم تبلغ السيئة درجة الظلم والاعتداء من أحد الطرفين على الآخر . وإلا : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)(٣) . وإلا أيضاً :(فان قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين) (٤) .

ورابعاً : أن الصبر ضرورة لضبط النفس فى عدم الركون الى الظالمين

---

(١) آل عمران : ١١٨
(٢) آل عمران : ١٢٠
(٣) البقرة : ١٩٤
(٤) البقرة : ١٩١

وفى حملها على المداومة على إقامة الصلاة ، وعلى ممارستها للاحسان فى المعاملة « واصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين »(أى فإن نتيجة الصبر هى أن يصبح الصابر ذا إحسان فى سلوكه لأنه يبعد عن تصرفاته : الحمق والتهور. ومن يتأن فى تصرفه يؤجر على تأنيه باحترام الآخرين له ، وبقربه من الصواب فيما يفعل . وبذلك تقل أخطاؤه ، وينأى عن الزلل) .

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

ثم تعرض السورة بعد أن حددت ما يطلب من الرسول عليه السلام والمؤمنين معه الآن ، لنجاحه ونصرته على أعدائه : من عدم الركون إليهم ، ومن إدامة الاتصال بالله عز وجل ، ومباشرة الإحسان كطريق لإزالة السيئة فى المعاملة مع الآخرين ، ومن الصبر وضبط النفس على أذى من عداهم : وضررهم : لظاهرتين اجتماعيتين من ظواهر المجتمع الإنسانى :

الظاهرة الأولى : ضرورة تغيير المجتمع عندما يستشرى فساد زعمائه فى غيبة الرقابة النافذة ، التى تستطيع الوقوف فى وجه ترفهم ، وإجرامهم ، وهى رقابة الأفراد المستقيمين فيه : «فلولا كان من القرون من قبلكم »(أى فى المجتمعات)«أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتبع

الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين » (أى لم يكن هناك فى المجتمعات البشرية التى انهارت وتقوضت فيما مضى إلا عدد ضئيل يحرص على الصلاح فيها ، وهم من أنجاهم الله من العذاب ومن أجل ذلك لم يستطع هذا العدد القليل من المصلحين الذين نجوا أن يحول دون أن يتبع الزعماء ترفهم ، مما أدى بهم إلى الظلم والإجرام فى أنفسهم ، وفى حق الآخرين معهم . ولذا كان تغييرها ضرورة اجتماعية .

ومعنى ذلك : أن المجتمع البشرى طالما فيه رقابة قوية من الأفراد المستقيمين ، تحول دون استشراء الظلم وارتكاب الجريمة فيه ، لا يوجد فيه مايدعو بالضرورة إلى تغييره ، بإيجاد زعامة مؤمنة قوية فى مجتمع جديد تحقق العدل والإحسان فيه) . « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم ، وأهلها مصلحون» (إذ أن الله سبحانه لا يقوض إطلاقاً مجتمعاً ، استقام أمر العلاقات فيه بين أفراده بوجود المصلحين الذين يستطيعون تحقيق العدل ، ودفع الظلم ، واستئصال الجريمة من كل جوانبه . وإنما تقويضه له ، بسبب ظلم الكبراء فيه وممارستهم لأنواع الجرائم فى حق الضعفاء معهم) .

والظاهرة الثانية : أن اختلاف الناس بين الإيمان والكفر ، والمادية والروحية ، قانون من قوانين الحياة الإنسانية . فهناك المجتمع الكافر ، أو المادى ، وهنا المجتمع المؤمن ، أو الإنسانى ، أو الإسلامى . وسيظل هذا الاختلاف قائماً إلى يوم البعث . لأنه يعبر عن مشيئة الله فى تجربة الحياة الدنيا ، بينما توحد الأمة البشرية ضد مشيئته : «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » (أى ولكن لم يشأ ذلك . لأن الناس لو أصبحوا أمة واحدة فى الكفر ، أو فى الإيمان لوجب قيام الساعة ، ولانتهت الدنيا كدار للتجربة ، ولتمييز المطيع من العاصى ، والمؤمن من الكافر) «ولا يزالون مختلفين » (ومن أجل

هذه المشيئة الإلهية سيظل الناس مختلفين فى الكفر والإيمان إلى يوم البعث ، وستظل المجتمعات البشرية منقسمة إلى مجتمعات مؤمنة أو انسانية ، وأخرى كافرة أو مادية ، حتى يأذن الله بتغيير الأرض والسموات) . «إلا من رحم ربك» (والمؤمنون فى الدنيا من الناس هم من رضى الله عنهم بهدايته إياهم ، وبرحمته من فضله)« ولذلك خلقهم» (وتوضيح اختلاف الناس فى طاعة الله وعدم طاعته هو الغاية من خلقهم : «(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)(١) « وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والنـــاس أجمعين » (وقضاء الله سبحانه بأن يملأ جهنم كدار للعقاب على العصيان والكفر ، والمادية الوثنية ، من مخلوقاته المعهودة وغير المعهودة فى الدنيا : هو نتيجة لمشيئة الله فى اختلاف الناس بين المؤمنين والكافرين ، وعدم توحدهم على كفر أو إيمان .

ومعنى ظاهرة ضرورة اختلاف الناس بين الكفر والإيمان ، كظاهرة اجتماعية ضرورية ، فى المجتمعات البشرية : أنه لايأس مع ظلام المادية الحالك وغلبتها وقوتها المخيفة فى وقت من الأوقات . . لا يأس مع طغيان الفكر المادى والإكراه عليه بالإرهاب والتهديد بقطع موارد العيش والحياة . . والرسول فى وقته ، والمصلح من بعده ، يجب أن يعلم أن نور الإيمان بالله قائم ، وإن خفت ضوؤه . ولكنه لا يفنى على أية حال) » .

* * *

---

(١) الذاريات : ٥٦

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

وتنهى السورة آياتها بالكشف عن الغاية من عرضها لتاريخ المجتمعات السابقة التي عاشت في صراع وفي معارضة مستمرة لدعوة الرسل الذين جاءوا إليها. وهي غاية تطمين الرسول محمد عليه السلام على دعوته، وعلى أن معارضيه من زعماء مكة سوف لا ينالون منه، ولا من دعوته شيئاً: «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل، ما نثبت به فؤادك» (أي ما نطمئنك عن طريقه في سبيل دعوتك، حتى لا تهتز نفسك بالمعارضة القوية التي تتلقاها الآن وأنت بمكة) «وجاءك في هذه: الحق» (وما ورد في تاريخ هذه المجتمعات التي قص أمرها عليه يمثل الحقيقة والصدق. ومن أظهرها ما ورد في هذا التاريخ: الصلة التي لا تنفك بين نهاية المجتمع وفساد زعمائه من جانب، ونصر الله للمؤمنين إذا أخذوا أنفسهم بهداية الله كطريق في الحياة من جانب آخر) «وموعظة» (كما أن ما جاءك في تاريخ هذه المجتمعات هو موعظة وعبرة كذلك: يعتبر بها قادة المجتمعات وزعماء الشعوب والأمم) «وذكرى للمؤمنين» (وفي الوقت نفسه أمر يتذكره المؤمنون دائماً. فلا ينال منهم اليأس والقنوط عندما تظلم المادية وتطبق على أرجاء المجتمع الذي يعيشون فيه. كما لا تضعف ثقتهم بالله في يوم النصر للحق على الباطل، مهما ظهر الباطل وراج). وبجانب هذه الغاية يناشد القرآن الكريم رسول الله

(١) الأنعام: ٣٥

صلى الله عليه وسلم فى ختام هذه السورة كذلك : أن يتحدى معارضيه من الوثنيين الماديين بمكة ، فى أن يعملوا ما يستطيعون عمله لتعويق رسالته : وقل للذين لا يؤمنون ، (وهم هؤلاء الكافرون بمكة — وكذلك الكافرون من بعدهم فى كل عهد ومجتمع —) : « اعملوا على مكانتكم » (أى اعملوا وسع طاقتكم ضد الرسالة والإيمان بها) «إنا عاملون» (ويعلنهم بأنه عليه السلام والمؤمنون معه سيبذلون قصارى جهدهم فى العمل على نشر الدعوة وتركيز الإيمان بالإسلام فى البشرية) . «وانتظروا ، إنا منتظرون»(وأنهم والمؤمنون يجب عليهم أن يرقبوا نتائج العمل لكل من الفريقين . وسيعلم الجميع : أن الهزيمة والعقاب بالكوارث الطبيعية فى الدنيا ، والخلود فى نار جهنم فى الآخرة هى من نصيب الكافرين الوثنيين . كما أن من نصيب المؤمنين نصر الله لهم فى دنياهم بإيمانهم، ونعيمه فى جنته فى آخرتهم) . « ولله غيب السموات والأرض» (وما ينتظر من جزاء الكافرين والمؤمنين هو حق وصدق . لأنه أخبر به عالم الغيب فى السموات والأرض ، وهو الله جل جلاله. وفى اخباره عنه يقول سبحانه : (**فويل يومئذ للمكذبين .الذين هم فى خوضهم يلعبون. يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التى كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا ، أم أنتم لا تبصرون ؟ . اصلوها ، فاصبروا أو لا تصبروا ، سواء عليكم ، إنما تجزون ما كنتم تعملون . إن المتقين فى جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ، كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة ، وزوجناهم بحور عين**) . (١))« وإليه يرجع الأمر كله » (ومع كونه سبحانه عالم الغيب فى السموات والأرض ، فهو النهاية التى ينتهى إليها مصير البشر جميعاً يوم البعث : فى جزائهم)« فاعبده ،وتوكل عليه» (وهنا إذا تم لك أيها الرسول — صلوات الله عليك وسلامه — الوقوف على تاريخ المجتمعات السابقة ، وعلى مصير البشرية المقبل ، واتضح لك أن الله سبحانه هو الذى أراد هلاك المجتمعات السابقة بسبب ما اقترفه الزعماء فيها من ظلم وفساد ، وهو سبحانه

---

(١) الطور : ١١ — ٢٠

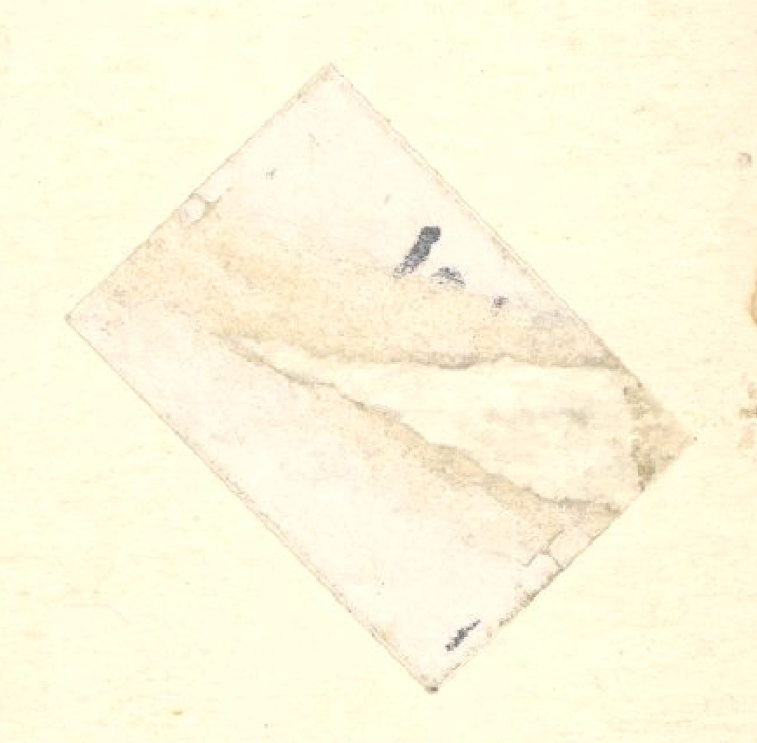
أيضاً الذى يحدد جزاء كل دابة يوم البعث واللقاء فى الآخرة ، بعد أن تعود كلها إليه : فيجب عندئذ ثباتك على عبادته دون غيره ، كما يجب عليك أن تفوض أمرك وأمر الدعوة إلى رسالته ، إليه وحده ، بعد أن تكون قد استنفدت كل مجهود بشرى فى سبيلها . وبعبادتك إياه ، وبتوكلك عليه وحده : تكون قد رسمت الطريق الصحيح للقضاء على الجاهلية أو المادية ، وعبدت سبيل النصر إلى الإيمان بالله فى المجتمع الجاهلى بمكة ، والمجتمعات المادية الأخرى فى عالم عصرك فى الشرق والغرب ، ثم بعد ذلك فيما بقى للبشرية من تاريخ إلى يوم البعث)«وما ربك بغافل عما تعملون » (وكما يتميز الله بخلقه لهذا الوجود فإنه يتميز أيضاً برقابته النافذة لكل ما يجرى فى كونه . ولذا : فالعاقل لا يخدع نفسه ، لأنه يستحيل عليه أن يخدع مولاه وربه .

ومن هنا يجب أن يكون عمله وفق نيته ، وظاهره مساوياً لباطنه . والمؤمن حقاً هو المخلص فى إيمانه . وفى مقدمة العقلاء : رسله ، وفى مقدمة الجهلاء من يكفرون ويصدون عن سبيله) » .

* * *

رقم الايداع ٧٦/٤/٢٤
الترقيم الدولى ١ ـ ٣٠ ـ ٧٢٣٦ ـ ٩٧٧

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩



دار غريب للطبـاعة

١٢ شارع نوبار (لاظوغلى - القاهرة)

تليفون : ٢٢٠٧٩